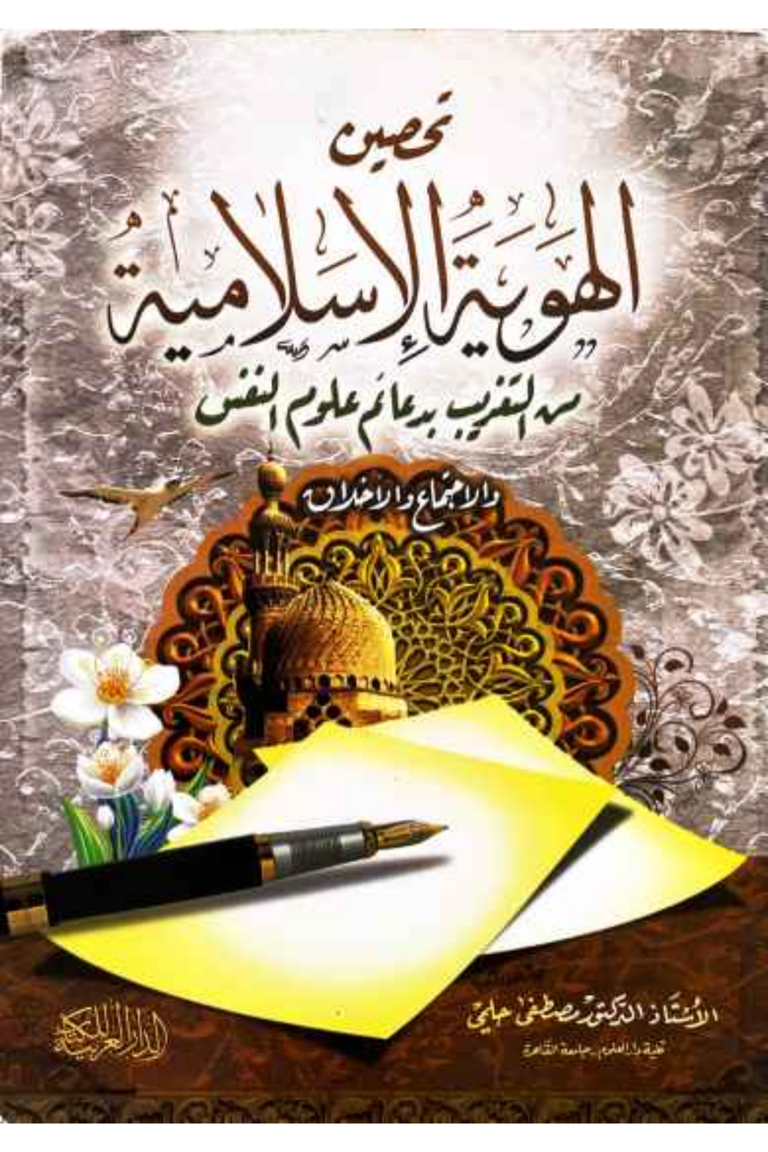

تحصين
الهوية الإسلامية
من التغريب بدعائم علوم النفس
والاجتماع والأخلاق
الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
الدار العربية للكتاب

الطبعة

١٤٣٧هـ -٢٠١٦م

رقم الإيداع القانونى: ١٨١٦٨/ ٢٠١٦
الترقيم الدولى: 4-350-253-977



تحصين الهوية الإسلامية من التغريب

بدعائم علوم النفس والاجتماع والأخلاق

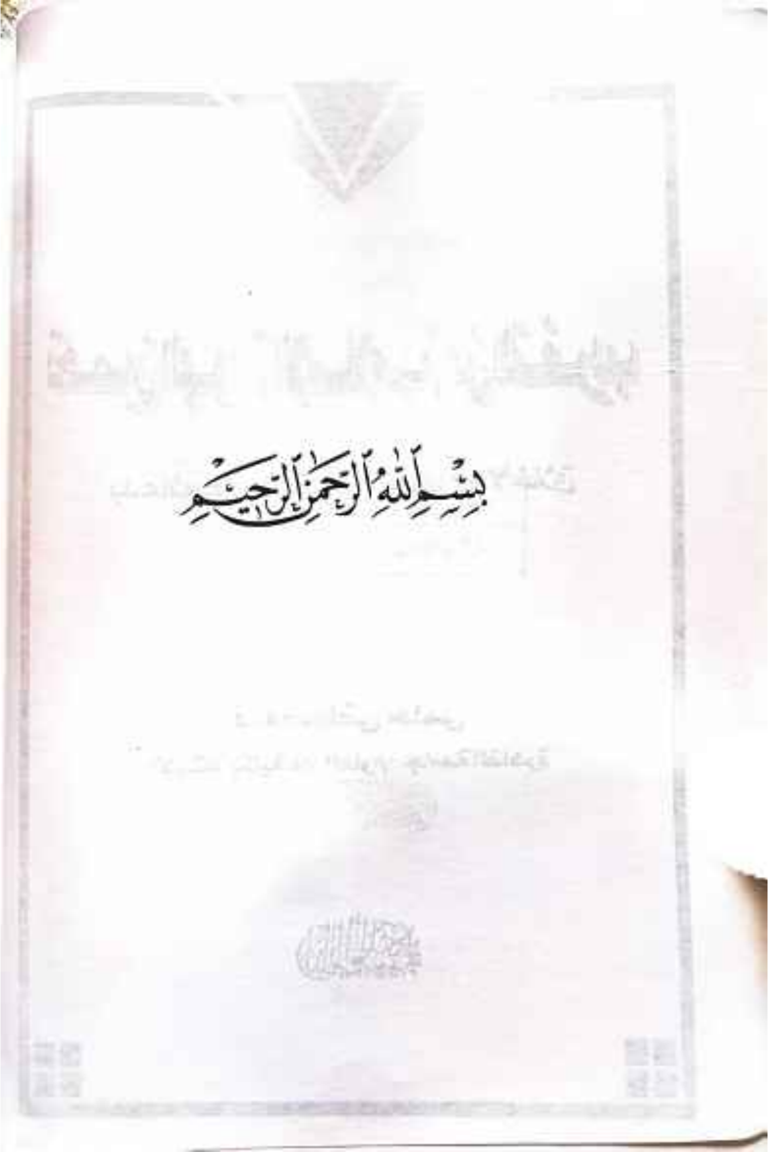
د. مصطفى حلمى

الأستاذ بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة









بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد:

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩][1].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وفى التفسير يذكر السعدى إن الله تعالى يخبر رسوله ﷺ أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاة إلى الدين الذى هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ الذى أرسلت به ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾.

وأما ما أنتم عليه، فهو الهوى بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فهذا هو النهى العظيم، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص بدينهم، والخطاب -وإن كان لرسول الله ﷺ- فإن أمته داخلة فى ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب)[2].

ويسجل الدكتور محمد شامة هذا العداء المستحكم بقوله: «تمتد جذور الإسلام

---

(١) عبد الرحمن السعدى (تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان) ص٥٥، مكتبة الصفا بالأزهر ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

حكماء، كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء»، فقال ﷺ: «وأنا أزيدكن خمساً فتتم لكم عشرون خصلة، إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا فيما أنتم عنه منتقلون، واتقوا الله الذى إليه ترجعون، وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون، وفيه تخلدون»[1].

وبعد، فربما يبدو للقراء فى الظاهر أن تلك البحوث تعالج ظواهر مختلفة، ولكن يجمع بينها الغرض لإقامة جدار ثقافى إسلامى يحصن الأمة من الطعنات الموجهة إليها حتى تجتاح المحن والشدائد المارة بها بنصر مظفر بمشيئة الله تعالى.

وكانت تلك البحوث مغمورة ومتفرقة بكتابين مخصصين للدراسة الجامعية منذ سنوات طويلة، وفى نطاق ضيق محدد للطلاب فحسب، فرأيت من الأفضل إبرازها وجمعها فى كتاب واحد فى متناول القراء، ليعم بها النفع، بفضل من الله ومنّة.

كذلك أضعها بين أيدى الدعاة وعلماء النفس والاجتماع والتربية والتعليم، كمدخل لدراسات أشمل ولتصبح زاداً للأجيال القادمة بمشيئة الله تعالى.

وأسأل الله تعالى أن يجعل عملى خالصاً لوجهه الكريم، ويبقى لى ذخراً لحياتى بعد مماتى، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصل الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

مصطفى بن محمد حلمى

الإسكندرية فى ٢٨ شوال ١٤٣٦هـ

١٣ أغسطس ٢٠١٥م

●●●

---

(١) ابن تيمية كتاب (الإيمان) ص١٥٧، ١٥٨، تصحيح زكريا على يوسف مكتبة أنصار السنة المحمدية، عابدين - القاهرة، بدون تاريخ.

توطئة

معنى التغريب: يعرّف التغريب بأنه (محاولة لإلغاء القديم، وإهالة التراب عليه والاتجاه عوضًا عن ذلك إلى الحضارة الغربية بكل مقوماتها فى حركة محاكاة وتقليد أعمى، واندفاع وارتماء فى أحضان عالم غريب عنا فى ثقافته وسلوكه. . .)[١].

ويعلل أستاذنا الدكتور محمد على أبو ريان -رحمه الله تعالى- الكثير مما نشعر به اليوم من بلبلة فكرية، واغتراب ثقافى، ودمار اقتصادى وتخلف سياسى. . . يعلله بالانتماء البغيض إلى مدارس الاستعمار وأسلوبه وثقافته[٢]، ويضرب أسوأ مثل على ذلك بما فعلته فرنسا بالجزائر؛ إذ عملت منذ احتلالها عام ١٨٣٠م على محو شخصيتها الإسلامية، وذلك باتباع سياسة الإبادة الجماعية، وتخريب العقيدة واللغة والثقافة، حتى تصبح الجزائر مقاطعة فرنسية خالصة![٣].

وقد قلدتها إسرائيل عندما احتلت أرض فلسطين وشردت أهلها عام ١٩٤٨م، وما زالت تعمل على إزالة آثار مدينة القدس الإسلامية لتحاول (تهويدها) هى الأخرى.

ولكننا نتعلم من تجربة الجزائر -بقيادة الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله تعالى- درسًا بالغ الأهمية، يعيننا على إنقاذ الأمة برمتها من براثن الغزو الثقافى الغربى؛ إذ أعلن على الملأ أن من أغراضه الدعوة العامة إلى الإسلام الخالص -أى

---

(١) د. محمد على أبو ريان (الإسلام السياسى فى الميزان. . .) ص١٣١، دار المعرفة الجامعية- سوتر- الإسكندرية ١٩٩٧م.

(٢) نفسه، ص١٢٣.

(٣) نفسه، ص١٣٦.

ويذكر أيضًا أن معظم المتصدرين للحكم والسياسة والقادرين على التغيير قد تربوا فى أحضان المدرسة الاستعمارية الفرنسية ص١٣٧.

الاستناد إلى الكتاب والسنة وهدى صالح سلف الأمة وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات[١].

وقد استخلص الدكتور محمود قاسم -رحمه الله تعالى- من دراسته عن دعوة الإمام بن باديس وحركة النهضة التي قام بها بنجاح، استخلص أنه لم يكن مصلحًا فحسب، بل كان مجاهداً سياسيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، فقد وضع للأمة الجزائرية دستور المستقبل عندما برهن لها على عدم مشروعية الحاكم الفرنسي، معتمداً على ذلك على ما استنبطه من خطبة الخليفة الأول أبو بكر الصديق، رضي الله عنه[٢].

وقد أجاد الدكتور رشدي فكّار في تصوير المعاناة التي كابدها الجيل عند المواجهات مع الاستعمار، وعانى من استيلاء فكر المستعمر، ومن تسلط الاحتكار الكوني على خيراته، وقال: (هذا الجيل المتأزم، أطالبه حاليًا بألا يغالي في هلعه من أزمته حتى لا يضيّع على الأجيال القادمة قدرة التفكير ويشل حركة التاريخ)[٣] ويطالبه بأن يصمد ولا يتراجع حتى يعطي الراية لجيل جديد. . . ويهوّن من شأن أزمة السنوات القليلة الحالية؛ إذ تعتبر ضئيلة أمام مسيرة تاريخية امتدت أربعة عشر قرنًا[٤]. .

ثم يشحذ الهمم باتخاذ الرسول ﷺ أسوة للنجاة من أزمتنا، فيقول: (في تصوري أن هناك مثالاً يصلح للاستشهاد به على الساحة الكونية كلها. . فهو النبي ﷺ.

أتساءل: كيف خرج ﷺ من غار حراء واعتمد على مجموعة من المستضعفين - وحاشا لله- فهم مستضعفون في مظاهرهم، ولكنهم أقوياء بإيمانهم وتعبئتهم وإصرارهم. . استطاع صلوات الله وتسليماته عليه بهذه القلة، ليس فقط أن يواجه مهمة تأصيل القاعدة الأولى للإسلام في مكة والمدينة، ولكن هؤلاء المستضعفين - رضي الله عنهم- شيدوا أعرق حضارة استمرت أكثر من ألف عام، بل تعتبر أطول

---

(١) عبد الحميد بن باديس (العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية).

(٢) د. محمود قاسم (الإمام عبد الحميد بن باديس، زعيم الثورة الروحية للجزائر ص٦٥، وقد ضحت الجزائر بمليون شهيد!

(٣) خميس البكري (د. رشدي فكار في حوار حول مشكلات العصر) ص٨٦، مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٤) نفسه ص٩٠.

حضارة فى تاريخ الأمم والإنسانية وهى حضارة الإسلام، حضارة القيم والمبادئ التى امتدت مشاعلها حتى بحر الصين، لا حضارة الأشياء)؟[١].

وعلى أية حال، فإن الحرب سجال بين كرّ وفرّ، وقد نخسر معارك، ولكن العبرة بالنهاية (والعاقبة للمتقين).

قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

جاء فى (تفسير المؤمنين) للشيخ عبد الودود يوسف، أن من سنن الله فى خلقه أنه يحمى عباده المؤمنين، وينتقم من خصومهم المجرمين، ويتعهد بنصر دينه، وينصر من يتمسك به؛ لأن المجرمين لا يمكن أن يستمروا إلا إذا غاب المؤمنون غيابًا عمليًا واجتماعيًا وفكريًا، وإذا حضر المؤمنون فكرًا وجهدًا، وتعاونوا كالجسد الواحد كما حدثنا القرآن الكريم والرسول ﷺ، فلا بد إن يذوب عدوهم يومًا فيومًا حتى يهلك)[٢].

ويرى أستاذنا الدكتور محمد على أبو ريان -رحمه الله تعالى- أنه بعد نجاح الشعوب الإسلامية فى إجبار الغرب على الجلاء عن بلادها، إلا أنه استطاع أن يثبت ركائزه وحرابه المسمومة فى جسم الأمة الإسلامية عن طريق ما نعرفه من مؤامرات الغزو الفكرى الثقافى للإسلام، وهذه هى أخطر مشكلة يواجهها الإسلام المعاصر[٣].

ولكن إذا قارنا بما اصطلح على تسميته بالغزو الثقافى بالأساليب المتطورة المستحدثة لا تضح لنا الفرق الشاسع بينهما، مما دفع الكاتب الأمريكى هربرت أ. شيللر إلى اختيار عنوان لكتابه باسم (المتلاعبون بالعقول)! ولم يصدر هذا الحكم من فراغ، بل استند على دراسة مستوعبة لتحكم شبكات التليفزيون فى المجتمع الأمريكى (فالأنباء التى يتلقاها ٤٠ مليون أمريكى كل ليلة يتحكم فيها حفنة من الأشخاص، المسئولين فقط أمام مستخدميهم فى الشركة المالكة، ويتم تصنيفها على يد حفنة من المعلقين لا

---

(١) نفسه، ص٩٥، ٩٦.

(٢) تفسير المؤمنين، أعده عبد الودود يوسف، راجعه د. مصطفى الخن ص٣٢٦، ط المؤسسة العلمية بدمشق ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(٣) د. محمد على أبو ريان (الإسلام فى مواجهة تيار الفكر الغربى المعاصر) ص٢٢، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية سنة ١٩٨٥م.

يأخذون إلا بما يتفق مع تحيزاتهم . . إن هناك احتكاراً فعليًا للجهاز الإعلامى فى مجمله . . وهناك أيضًا اتجاه إلى احتكار أدوات الإعلام الكبرى (الصحف) وتركيز السلطة أكثر فأكثر فى أيد أقل فأقل . . ونتيجة لذلك لم يعد هناك مجال لذلك الإيمان الساذج بحياد صحفهم ومحطاتهم)[١] .

ونوجز مضمون الكتاب فى بعض العبارات الورادة به، مثل قوله : (فإن أجهزة توجيه العقول التى بلغت درجة عالية من التنظيم . . . تمثل خطوة مخيفة نحو تضليل الوعى الإنسانى) ص٧١، ٧٢ .

وينقل لنا تصريحًا معبراً بدقة على دور الجهاز الإعلامى فى التأثير على الجماهير – والتى أطلق عليها اسم «الأغلبية الصامتة»– ، وهذا التصريح جاء على لسان جوزيف كلابر مدير قسم البحوث الاجتماعية بشبكة كولومبيا للإذاعة والتليفزيون، قال فيه : (إن هناك منطقة أخرى يمارس فيها الاتصال الجماهيرى تأثيراً بالغ الفعالية، وتتمثل فى خلق رأى عام فيما يتعلق بالقضايا الجديدة، وأعنى بالقضايا الجديدة تلك القضايا التى لا يملك الفرد حولها رأيًا محدداً، والتى لا يملك إزاءها رأيًا محدداً أيضًا أصدقاؤه، أو زملاؤه فى العمل، أو الأسرة . . . . إلخ، والسبب الذى يؤدى لفاعلية الاتصال الجماهيرى فى خلق مناخ من الرأى فيما يتعلق بالقضايا الجديدة واضح تمامًا : فالفرد لا يملك ميلاً مسبقًا يدافع عنه، وبالتالى فإن الاتصال يهاجم، لو جاز التعبير، تربة غير محصنة . . . وإذا لم يملك الشخص أى مصدر آخر للمعلومات حول الموضوع يمكنه استخدامه كمحك للاختبار، أصبح يعتمد اعتماداً كليًا على ما يقدم له من معلومات حول الموضوع المثار)[٢] .

●●●

(١) هربرت أ. شيللر (المتلاعبون بالعقول) ص٢١٨، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة – الكويت، ذو القعدة سنة ١٤١٩هـ – مارس سنة ١٩٩٩م .

وتحت عنوان الفصل السادس (توجيه العقول ينتقل إلى ما وراء البحار : تصدير تقنيات الاستمالة، نقل عبارة عن مجلة (ريدرز دايجست) الأكثر رواجًا فى العالم، تقول فيه : (إن لدينا أفضل الصلات فى أفضل بقاع العالم . . نحن على قمة العالم) ص١٧٧ .

(٢) نفسه، ص٢٣٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،

أما بعد

يتعرض العالم الإسلامي لأشد حملات التشويه والطعن لدينه بواسطة البث الإذاعي بالأقمار الصناعية، والمحطات الفضائية الدولية، ولا يدفعها ويبطل مفعولها إلا وسائل مشابهة، وقد أصبح ذلك ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة للأمة الإسلامية، وهي مسئولية الحكومات وأجهزة الإعلام للحفاظ على مقومات الشخصية الإسلامية إزاء سموم الغزو العدائي.

ولكن ما موقفنا كأفراد ومجتمعات؟ هل ننتظر حتى تتحقق تلك الآمال متذرّعين بموقف الحكومات، ومن ثمّ نعلق المسئولية على الغير؟

يتنافى هذا الموقف السلبي مع أوامر الشرع الذي لا يعفينا من معرفة أحكام الدين، وهي مسئولية فردية لا يُعفى منها أحد، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، يذكر الإمام ابن حزم أنه فرض على كل أحد طلب ما يلزمه على حساب ما يقدر عليه من الاجتهاد لنفسه في تعرّف ما ألزمه الله تعالى إيّاه، أي يعرف ما يحل له وما يحرم من المآكل والمشارب والملابس والزواج والدماء والأقوال والأعمال (فهذا كله لا يسع جهله أحدًا من الناس)[1].

(*) هذا المبحث مستلٌ من كتابنا (أضواء على ثقافة المسلم المعاصر ط دار الدعوة بالإسكندرية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م

(١) باختصار من كتاب (الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم جـ٥ ص١١٣، ١١٤ دار الحديث بالقاهرة، بدون تاريخ.

وقد أعلن الإمام ابن حزم هذا الرأى أيام عزة المسلمين وتميُّزهم بالصوت الأعلى! فما موقفنا الآن ونحن نعانى من التلوّث الإعلامى الكريه؟

لا شك أن الأوضاع المتردّية التى أشرنا إليها تحمِّل المسلمين - خاصتهم وعامتهم- أعباءً أكبر للتعرّف على دينهم وتخليصه من شوائب التيارات الهادمة.

ونرجو تأدية واجبنا بهذا الكتاب الذى يُلقى الضوء على بعض القضايا التى تهم المسلم المعاصر.

ويتضمن الكتاب خمسة بحوث، بدأنا فى البحث الأول بشرح مزايا العقائد الإسلامية ليكون المسلم المعاصر على بيِّنة من دينه إذا ما دُعِىَ (للحوار بين الأديان) وهو الشعار المرفوع كبديل لصراع الحضارات.

وتحدثنا فى البحث الثانى: عن كيفية تحصين الهويّة الإسلامية إزاء حملات التغريب باجتياز رافدين:

أحدهما: المعرفة بحقيقة حضارة العصر حتى لا يصبح المسلم أسيرًا لفتنتها، سائرًا وراءها مخدوعًا، فتلقى به إلى هاوية أزماتها الخانقة، وأبشعها فقدان معنى الحياة وهدفها، بحسب وصف بعض فلاسفتها.

والثانى: يرسم طريق المضىّ قُدُمًا فى التثقيف الذاتى، والإحاطة بأركان الدين وأحكامه.

تحدثنا فى البحث الثالث: عن توافق الأدلة السمعية (بالكتاب والسُّنَّة) مع الأدلة العقلية للحد من الغلوّ فى الفكر الفلسفى - قديمًا وحديثًا- الظّان بأنه وحده يعرف الحقيقة، ويستأثر بمنهج الوصول إليها.

ويتصل بنفس الغرض المبحث الرابع: الذى يُدعِّم فكرة أن الاكتفاء بمعرفة الإسلام من مصدريه، يُغنى عن اللجوء إلى منهج المتكلِّمين.

وتحدثنا فى المبحث الخامس عن منظومة القيم الرفيعة للحضارة الإسلامية كما قدّمها الرّاغب الأصفهانى داخل دوائر ثلاث:

١- العبودية لله عز وجل وحده.

٢- تحقيق مقام الخلافة للإنسان المؤمن.

٣- المبادئ الأخلاقية التي تتسع مجالاتها بين الواقعية والمثالية.

ويرشدنا الأصفهاني في هذا التصور إلى طريق التنوير الحقيقي- لا الزائف الذي يريد أصحابه اجتياز طريق حضارة أخرى ضلّت طريقها إلى الله عز وجل.

﴿.. وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في:

٦ رمضان سنة ١٤١٩ هـ

٢٥ ديسمبر سنة ١٩٩٨ م

●●●

المبحث الأول

العقيدة الإسلامية فى مجال الحوار بين الأديان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، وبعد

فإن أول خطوة نراها ضرورية لإتمام الحوار بين الأديان، هى إزالة شوائب سوء الفهم والجهل بالحقائق الأولية والكف عن إشاعة الذعر، فإن الطريقة التى اتبعت فى تثقيف الأجيال فى الغرب- كما يذكر موريس بوكاى فيما يتعلق بالقضايا الدينية شابهًا الجهل بكل ما يمس الإسلام (وظل الاستعمال السائد حتى اليوم فى التسميات مثل «الدين المحمدى» «والمحمديون» ليدل على الرغبة فى أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأى الخاطئ القائل بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل)[١].

ولا يُعفى بعض المستشرقين من المسئولية، فإنهم حشدوا مجموعة من الأخطاء الجسيمة، استنفرت الدكتور عبد الرحمن بدوى، فهبَّ مدافعًا عن القرآن، ملخِّصًا دوافعها لما سمَّاه بجراءة جهولة، أو عمى بصيرة أو اختلاق فرضيات ونظريات زائفة وهمية، ثم فنَّدها واحدًا فواحد، (وخرج القرآن منتصرًا على كل هذه الهجمات)[٢].

وزادت وسائل الإعلام الغربية النار اشتعالاً فخلطت بين الإسلام والإرهاب بشكل متميِّز (فى الوقت الذى تواجه فيه دول وشعوب العالم الإسلامى ثلاث أزمات واضحة: أزمة هوية، وأزمة شرعية وأزمة مرجعية)[٣].

ونضيف أيضًا ما لاحظناه من حملات مسعورة نحو الصحوة الإسلامية وحدها، وإغفال متعمد للصحوة الدينية فى أنحاء العالم، إذ تصمت أجهزة الإعلام الغربية صمتًا مريبًا عن دور الدين الذى يلعبه الآن على المسرح السياسى بأوروبا وأمريكا فى علاقته بالعالم الإسلامى بالذات، بينما الدراسات العلمية الجادة التى تُجرى تباعًا،

لتكشف عن هذا التنامي للحركات الدينية بالغرب، ونكتفي بإشارات: منها ما استخلصه الدكتور حامد ربيع - رحمه الله - لكون خروج الدين من قوقعته (التي فرضها عليه الفكر السياسي للثورة الفرنسية.. واليهودية استطاعت أن تخلق الصهيونية السياسية، ومن خلالها تصل بنا إلى بناء الدولة الإسرائيلية، والكاثوليكية السياسية ظلت في تقدم مستمر)[٤].

وإذا رجعنا إلى بعض البحوث العلمية نجدها مُجمعة على قوة التيار الأجنبي الأصولي في أمريكا الذي يقوده بعض كبار رجال الدين هناك أمثال «ندس وفالويل وسواغارت وروبرتسون، وعندهم حوالى ٤٠ مليون انجيلي أصولي»[٥]، وهم يستمرون في تدعيم إسرائيل وفق عقيدة إيمانية شعارها «المناداة بعودة اليهودية إلى فلسطين كمقدمة حتمية لعودة المسيح المنتظر تبعًا لنبوءات العهد القديم»[٦].

وبعد هذا التمهيد الذي أزحنا فيه الستار عن بعض جوانب القضية الدينية، ننتقل إلى توضيح موجز لبعض المعالم البارزة لحقيقة الإسلام بمنهج موضوعي يستند إلى الرغبة في تصحيح المفاهيم، وإزالة اللبس، والدعوة إلى الجدل بالتي هي أحسن:

أولاً: التوثيق العلمي للمصادر:

ظهرت في القرن التاسع عشر بأوروبا ثورة ثقافية سُمِّيت «بظهور فن النقد الأعلى» (Higher Cristisism) والأثر المباشر لهذا الفن كان «بمثابة اعتراف بالقرآن دون كتب الملل الأخرى ككتاب ثابت تاريخيًا»[٧].

إن كل مَن يتبع خطوات وإجراءات حفظ القرآن حفظًا في الصدور وكتابةً وتدوينًا يستطيع أن يستوثق بشكل كامل أنه لا يوجد ثغرة ينفذ منها أي طاعن.

يقول مايكل هارت «والقرآن الكريم نزل على الرسول ﷺ كاملاً. وسُجلت آياته وهو ما يزال حيًا، وكان تسجيلاً في منتهى الدقة، فلم يتغير منه حرف واحد، وليس في المسيحية شيء مثل ذلك، فلا يوجد كتاب واحد مُحكَم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن الكريم»[٨].

ومن هنا فلا سبيل أيضًا إلى تشبيهه - كما يقرر الدكتور حسن ظاظا العالم

المتخصص في دراسة اليهودية- من قريب أو بعيد بالنصوص المقدسة التى بين أيدى اليهود، فالعهد القديم استغرق أجيالاً من الأنبياء المتعاقبين على طيلة ألف سنة تقريباً كذلك المشنا والتلمود استغرقتا ألفى سنة «وهى فترة لا يمكن تصويرها مجتمعتين متشابهتين، أحدهما يلى طرفها الأول والثانى على طرفها الأخير»(٩).

ولا تسلم الأناجيل أيضاً من المطاعن باستعمال منهج النقد العلمى من حيث اتصال السند والتوثيق، فإن الإنجيل الأول المنسوب إلى «متى» كتب أولاً باللغة «الآرمية» ولكن ليس لدى النصارى منه إلا الترجمة اليونانية بلا معرفة للمترجم وبلا سند كامل متصل «وإنما يأخذون بالظن فيقولون لعله فلان أو فلان ويتمسكون بقرائن لا تجدى مثل اتفاق هذه الكتب فى بعض مضامينها وشهادة بعض تابعى الحواريين بوجود بعضها فى القرن الأول والثانى، ثم اشتهارها فى أواخر القرن الثانى وابتداء القرن الثالث وهم يعتذرون عن ذلك بأنها كتبت فى ظلال السرية بسبب الاضطهادات التى حلت بأسلافهم»(١٠).

أما «لوقا ومرقس» فلم يريا المسيح- عليه السلام- أصلاً، أما «مَتَّى ويوحنا» فمُخْتَلَف فى رؤيتهما له، والمحققون يُرَجِّحُون عدم الرؤية(١١).

وقد اتفق كُتَّاب المسائل النصرانية بدائرة المعارف الفرنسية- على أن التحقيق العلمى والتاريخى يؤكد أن هذه الأناجيل كتبها أشخاص غير الحواريين والتابعين الذين نسبت إليهم(١٢).

ثانياً: خلو الإسلام من الكهنوت:

يرجع ظهور الكهنة تاريخيًا إلى مرحلة ظهور الأنبياء عند اليهود، فقد اشترك الكهنة مع الأنبياء حينئذ بادعاء الوحى وتقديم النصائح.

ولكن الفرق بينهما هو بُعد الأنبياء عن المعابد، وانقطاع صلاتهم عن الهيكل أو القرابين ويتضح التمييز بأن الكهانة وظيفة تعارض النبوة فى كثير من الأوقات(١٣) كما كان النزاع بينهما قائمًا دائمًا حيث كان الكهنة يحقدون على الأنبياء لتدخلهم فى الشئون الدينية محاولين الانفراد بهذا المنصب «وليس الخلاف الذى حدث بين عيسى- عليه السلام- وكهنة الهيكل إلا حلقة من حلقات مماثلة بين الأنبياء والكهنة»(١٤).

وينتسب الكهنة إلى أبناء ليفى - أحد أبناء يعقوب - عليه السلام - ولا يصلون إلى الكهنوتية إلا بعد تدريبات ومعرفة الطقوس والأسرار الدينية لإثبات الاستحقاق لهذا المنصب، ومن طريقهم تقدم القرابين كما تقدم لهم العشور من نتاج الضأن، وأصبحت ثروتهم مقدسة وشخصيتهم الوسيلة إلى الله، فصاروا أقوى من الملوك فى كثير من الأحوال[١٥].

هذا، وقد كان المجتمع الكهنوتى الذى يدير شئون اليهود الواسطة بين الناس وبين الله، فلا تُقبل التوبة ولا القرابين إلا إذا باركها الكاهن، وقد جاء عيسى - عليه السلام - للقضاء على نفوذهم، ولكن للأسف أصبح القساوسة بعده يمثّلون نفس الدور الذى مثّله كهنة اليهود من قبل.

وجاء الإسلام ليبطل ذلك كله، واستقرت فى العقيدة الإسلامية حقيقة النبوة الصادقة، حيث أورد القرآن الكريم قصص الأنبياء والرسل وصفاتهم وأخلاقهم ورسالاتهم، وتحققت فى شخصية الرسول «ﷺ» صفات النبى الخاتم.

وبحسب اصطلاح أحد الدارسين لعلم مقارنة الأديان، يرى أنه «فى الإسلام، كل إنسان هو كاهن نفسه، بمجرد أن يكون مسلمًا، هو الإمام والخليفة فى عائلته، وهذا انعكاس للجماعة الإسلامية كلها»[١٦].

ثالثًا: المنهج الاستدلالى للإسلام مستمد من مصادره:

بناء على الدراسة المستوعبة للأدلة بالكتاب والسنة يستخلص ابن تيمية أن القرآن اشتمل على أصول الدين وعلى البراهين والآيات والأدلة اليقينية، والرسول «ﷺ» أنزل عليه الكتاب والحكمة، والحكمة كما فسرها غير واحد من السلف، هى السنة، أو معرفة الدين والعمل به، لذلك فإن الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين[١٧].

ويعتمد ابن تيمية فى استنتاجاته على آيات من الكتاب، لأن الله تعالى علم الإنسان البيان، كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] والبيان: بيان القلب واللسان، كما أن الصمت

والبكم في القلب واللسان، كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

والميزان التي أنزلها الله مع كتابه ميزان عادلة، تتضمن اعتبار الشيء بمثله، وخلافه- فتسوّى بين المتماثلين وتفرق بين المختلفين بما جعله الله في فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف.

ولذلك، يوصف هذا المنهج بأنه شرعي عقلي باعتبار أن الدليل الشرعي مستمد من الشرع، وأنه متفق مع العقل أيضًا. هذا فضلاً عن الصفة الجامعة للشريعة لمصالح الدنيا والآخرة، فهي جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشريعة إنما هي «كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات والأعمال والقياسات والأحكام والولايات والعطيات[١٨] وظلت هذه القاعدة المنهجية ثابتة لم تمسّها تقلب الأزمان أو تعاقب العصور حتى عصرنا هذا، فقد قام في العصر الحديث موريس بوكاي- الطبيب النفسي الفرنسي- بدراسة مضامين الآيات القرآنية المتصلة بظواهر كونية، كخلق السماوات والأرض، أو خلق الإنسان وأطوار حياته منذ كونه جنينًا في بطن أمه، أو عمالك النبات والحيوان والطيور والحشرات أو الأرض بجبالها ووديانها وأنهارها ومحيطاتها وبحارها. واستخلص بوكاي من دراسته توافق القرآن مع معطيات العلم الحديث، مستبعدًا تمامًا اتصالها بمعلومات عصر التنزيل، ومؤكدًا بالأدلة أنها تتضمن ما عرفه العلماء المتخصصون- كل في مجاله- في العصر الحديث، وبذلك أصبح الاستدلال بالقرآن الكريم نفسه من أنسب الطرق- بل أفضلها- للنفاذ إلى عقول أهل العصر الحاضر الذي يحتل في العلم ومنجزاته النصيب الوافر في حياة الإنسان. يقول بوكاي (إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنساني. وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ. وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنسانًا، كيف استطاع في القرن السابع الميلادي من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية

الحديثة؟[١٩] أما الدارس لتاريخ النصرانية العقائدى فسيقف على منهج مخالف تماماً، إذ اعتمد رجال الكنيسة على الفلسفة اليونانية لشرح العقائد النصرانية: ففى كتب (من سقراط إلى سارتر)، يقول المؤلفان فالكتب المقدسة أصبحت تؤيدها تعاليم أرسطو «ذلك المسيحى الميتافيزيقى الذى لم يسمع بالمسيحية قط»، ويقصدان بذلك أن المسيحيين- وفى مقدمتهم القديس توما الأكوينى - ألبسوه ثوب العقيدة، أو أنهم غلّفوا العقيدة النصرانية بفلسفته، وهذا بالضبط ما عنياه بقولهما فى الفقرة التالية من الكتاب نفسه. (لقد جئ بفلسفة أرسطو من العالم الوثنى إلى العالم المسيحى لتثبيت العقيدة الأساسية للفقه الكاثوليكى.. إن الأقنوم الثانى (الكلمة) قد تجسد فى المسيح، فالصورة عند أرسطو هى ألوهية المسيح، والمادة عند أرسطو هى (لحمه) ويؤكد وجود الله (تعالى) لا عن طريق الإيمان القلبى بل عن طريق العقل... إنه الفيلسوف القدّيس يذود عن الدين بقوة البراهين الفلسفية)[٢٠].

كذلك يذكر بارتولد أن مبشرى النصارى اضطروا إلى استخدام الأدلة الفلسفية فى نزاعهم مع الفلسفة الوثنية والفلسفة الغنوستية «فظهرت مذاهب دينية فلسفية متنوعة كان أعظمها فى الإسكندرية وأنطاكية، فأما الذى فى أنطاكية فيعتمد على أرسطو وأما الذى فى الإسكندرية فيعتمد على أفلاطون»[٢١].

رابعاً: المسلمون دينهم واحد:

ويعنى بذلك اتفاقهم على معرفة أصوله وأركانه وفرض العمل بها، وربما لا يعرف المسلمون هذه الميزة فى دينهم إلا إذ قارنوا بين تصورهم لدينهم وتعريفهم له مع اختلاف مذاهبهم الفقهية وبين عقائد النصارى، فقد ظلت الحضارة الغربية محصورة وراء قضبان المفاهيم الدينية التى عرفتها منذ اليونان وهى:

١- دين اليونان والرومان.

٢- النصرانية.

٣- دين الإصلاح وهو وصف لما أدخله لوثر على النصرانية.

٤- الدين الطبيعى من اختراع أوجست كونت وسمى[٢٢] أيضاً بمذهب الألوهية الطبيعية، أى إقامة عقيدة على أساس طبيعى بالاستغناء عن الوحى والتعاليم المنزلة.

وقد انعكست آثار هذا الخليط على التصورات والمفاهيم للدين مما يجعله مجموعة من الأفكار والنظريات تتزاحم فيه الموروثات من المجتمعات الوثنية اليونانية، وزاد غموضًا اختلاف النصارى في تصورهم للألوهية، والقصور في تعريف النبوة وتقديرها حق قدرها، ثم الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية بواسطة مارتن لوثر وكالفن وتعدد الأناجيل.

ولا نعثر على تلك العقبات في طريقنا للبحث في الإسلام، إذ لو أزاح الباحث عن نفسه عقبات العقائد الموروثة، ونحّى عنها التعصب الديني، وتحرر للبحث عن الحقيقة بإخلاص، فيسهل عليه الوقوف عليها من أكثر الطرق، لأنه بالرغم من تنوع طرق المسلمين ومذاهبهم- كما يذكر ابن تيمية- إلا أن دينهم واحد، كل منهم يعتقد ما يعتقده الآخر، ويعبده بالدين الذى يعبده، ويسوغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع.. وتلخيص الأمر في هذا المقام إنما هو تفضيل قول وعمل على قول وعمل، بالأقوال والأعمال المختلفة لا بد فيها من تفضيل بعضها على بعض عند جمهور الأمة(٢٣).

ونأتى بشهادة نصر بين يحى المهتدى للإسلام، -وكان قسيًا- إذ تحقق بنفسه أن اختلاف المسلمين يقتصر على فروع الدين، بعد اتفاق جماعتهم على إلاههم ومعبودهم، وأنه- عز وجل- واحد لا شريك له ولا ولد له، خالق الخلق كلهم، ثم اتفاقهم على نبيهم- محمد «ﷺ» وعلى القرآن المجيد، وأنه كتاب الله المنزل على نبيه، لا يختلفون في ذلك «فإذا صح اتفاقهم على هذه الأصول كان ما سواها سهلاً لا يقع معه كفر ولا يبطل به دين وإنما البلاء العظيم الاختلاف في المعبود»(٢٤).

خامسًا: ازدهار العقيدة الإسلامية في ضوء الاكتشافات العلمية:

أحدث المذهب المادى بسبب سلطان النظام الماركسى بعض البلبلة الفكرية في نظرية المعرفة، إذ افترض أن المادة الظاهرة أمامنا هى الحقيقة النهائية أو الوحيدة ولكن سرعان ما أسفرت البحوث العلمية عن تهافت هذا الفرض أمام عدة براهين، نكتفى منها باثنين:

١- تطور الوسائل العلمية في البحث، واستخدام المخترعات الحديثة التى ضاعفت قدرات الأسماع والأبصار- كاللاسلكى والتلسكوب والمجهر- فتضاعفت الموجودات

عما كان يعرفها الإنسان بإدراكاته الحسية الفطرية وحدها، وفي هذا المجال يقول د. أحمد زويل «يقسم علماء الكمياء والفيزياء الكائنات إلى كائنات مرئية وكائنات غير مرئية، الكائنات المرئية هي التي يمكن رؤيتها ولو باستخدام الأجهزة العلمية الدقيقة.. والكائنات الغير مرئية هي التي لا يمكن رؤيتها رغم اعتراف العلم بوجود حياة في هذه الكائنات لوجود أثر تدل عليه، فهي تتحرك وتتناسل وتموت...». إلى أن يقول «واستطعت تصوير حركة (الجزئ) التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الجزئ كائن حي يعيش ويتنفس ويتحرك»، أي أنه أثبت وجود حياة في الجزئ باعتباره أهم مكونات الحياة وأصل «المادة»..[٢٥].

وبهذا البرهان القطعي تحولت المادية إلى «خرافة»!

كذلك أثبت العلماء المتخصصون بتجاربهم «أن الحقيقة في شكلها الأخير غير قابلة للمشاهدة، ويمكن أن تُستنبط مظاهرها فقط»[٢٦]، ويقرّب لنا أحد العلماء هذا التصور بما تنص عليه الحقيقة الخامسة في ميكانيكا الكم، أن «العالم يخضع لنوع من التفسير المنطقي مغاير للتفسير البشري له»[٢٧].

٢- الاتجاه الملاحظ في التاريخ العلمي، وخلاصته أن القضايا العلمية أخذت منذ بداية هذا القرن طابع العموميات، وأصبحت النظريات المتعمدة سابقًا على الفرضيات والإدراكات الحسية حالات خاصة ضمن نظريات أعم وأكثر شمولية، ويقول الدكتور/ محمد الحسيني بعد سرده للتاريخ العلمي للنظريات «فهناك إيمان الآن يكاد يكون مشتركًا بين جميع علماء الفيزياء بأننا نتجه بُخطى واضحة نحو نظرية شمولية واحدة كافية لتفسير جميع الظواهر أو الحقائق الكونية بل أصبحت تأخذ طابعًا غيبيًا بدرجة كبيرة»[٢٨].

وما دام العلم قد أثبت استحالة مشاهدة الحقيقة في شكلها الأخير، فإن ذلك يقوّض دعائم المذهب المادي من أساسه، ويعضد عقيدة الإسلام بالإقرار بأن الإنسان لا يمكن أن يشاهد الله- عز وجل- أو عالم الآخرة في الحياة الدنيا.

ونأتي أخيراً بشهادة أحد علماء الفيزياء المرموقين حيث يشرح فكرة الخلق من العدم بأسلوب علمي، فيقرر أن عدداً متزايداً من علماء الكونيات يعتقدون اليوم أن القيمة

الأكثر احتمالاً لكثافة المادة والطاقة فى الكون هو القول بأن كتلة الكون تنتهى فى مجموعها إلى الصفر على وجه التحديد، ويضيف إلى ذلك أنه «إذا كانت كتلة الكون هى الصفر فعلاً وهى يمكن التحقيق منها امبريقيًا «تجريبيًا» فإن الكون يشارك حالة الخواء- أى خاصية (انعدام الكتلة) وظهر منذ عشر سنوات استقراء وجود الذى يعتبر أن الكون عبارة عن تقلبات كمية للخواء، وهى حالة من اللاشيئية فى المكان والزمان خُلقت من العدم»(٢٩).

وهكذا جاءت الكشوف العلمية كالبيّنات، تفتح أعيننا على هذه الحقائق، وتمد العقائد الإسلامية بما يؤهلها للنفاذ إلى عقل الإنسان وهو يستقبل القرن الواحد والعشرين لها.

سادساً: حقيقة النبوة ودلائل صدق نبينا محمد «ﷺ»:

وسنتوسع فى شرح الاستدلال على صدق نبوة نبينا محمد «ﷺ»، لكن نشير فقط هنا إلى أمرين:

أ - إحدى بشارات الكتاب المقدس:

فقد ورد بإنجيل يوحنا أن المسيح- عليه السلام- قال «إن أركون العالم سيأتى، وليس لى شىء».

والأركون بلغتهم- كما يذكر ابن تيمية- عظيم القدر، فقول المسيح عليه السلام «أركون العالم» إنما ينطبق على عظيم العالم، وسيد العالم، وكبير العالم.

ب - دوره «ﷺ» فى تغيير العالم:

ومن المعلوم باتفاق أهل الأرض- كما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم، باطنًا وظاهراً، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع فى السر والعلانية، فى محياه وبعد مماته، فى جميع الأعصار وأفضل الأقاليم شرقًا وغربًا أحد غير محمد «ﷺ»، فإن الملوك يطاعون ظاهراً لا باطنًا، ولا يطاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله فى الدار الآخرة، ويخافون عقاب الله فى الدار الآخرة، بخلاف الأنبياء وربما يأتى معارضون ليقولوا: إن وصف ابن تيمية

صحيح فى عصره وما قبله حيث ساد المسلمون العالم عسكريًا وحضاريًا وثقافيًا ونفوذًا، فأين هم الآن؟

وقد أجاب ابن تيمية ضمنًا على هذا التعليق فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] ورأى شيخ الإسلام أن ظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان، إنما هو بما يظهره من آياته وبراهينه، وذلك إنما يتم بالعلم بما ينقل على محمد «ﷺ» من آياته التى هى الأدلة وشرائعه التى هى المدلول، والمقصود بالأدلة، فهذا قد أظهره الله علمًا وحجة وبيانًا على كل دين، كما أظهره قوة ونصرًا وتأييدًا على كل دين[1].

أما قوله: «لم يأت بعد المسيح من ساد العالم، باطنًا وظاهرًا وانقادت له القلوب والأجساد... إلخ

فقد تأيد بالمنهج الذى اتبعه الباحث الأمريكى مايكل هارت بكتابه «الخالدون مائة- أعظمهم محمد- ﷺ-» حيث أجاب بدوره على الدهشة التى سيديها البعض بوضعه للرسول ﷺ على رأس القائمة فقال «وربما شيئًا غريبًا حقًا- أن يكون الرسول ﷺ- فى رأس هذه القائمة، رغم أن عدد المسيحيين ضعف عدد المسلمين، وربما غريبًا أن يكون الرسول - عليه السلام- هو رقم واحد فى هذه القائمة، بينما عيسى عليه السلام هو رقم ٣ وموسى عليه السلام رقم ١٦.

ولكن لذلك أسباب، ومن بينها أن الرسول «ﷺ» قد كان دوره أخطر وأعظم فى نشر الإسلام وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى عليه السلام فى الديانة المسيحية، وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق وهو أيضًا المسئول عن كتابة الكثير مما جاء فى كتب «العهد الجديد».

أمّا الرسول «ﷺ» فهو المسئول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصوله الشرعية وسلوكه الاجتماعى والأخلاقى وأصول المعاملات بين الناس فى حياتهم

(١) الجواب الصحيح جـ٤ ص٢٤٣.

الدينية والدنيوية كما أن القرآن الكريم قد نزل عليه وحده وفى القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه فى دنياهم وآخرتهم[(١)].

والكلام عن النبوة متشعب المسالك والطرق يقتضى الحديث عن التعريف بأنبياء الله تعالى ورسله وأدلة صدقهم وطبيعة رسالتهم وشرائعهم والحكمة من بعثهم والتمييز بينهم وبين الأنبياء الكذبة أو الكهنة وغير ذلك من قضايا أخذت مكانتها فى كتب علماء المسلمين كأحد المداخل الرئيسية لمنهج دراسة الأديان والعقائد.

ولعل المختصر الذى أورده نجم الدين البغدادى (٧١٦ هـ) يغنينا عن الإسهاب حيث عالج فيه:

١- حقيقة النبوة، فإنها وحى صادق نافع للناس تكشف عن الغيب الذى يعجز الإنسان بقدراته وملكاته الذهنية عن معرفته.

٢- وجودها: فلا منازع فيه عند أهل الملل الثلاث حيث أن الله تعالى أنعم على عباده بالنعم الكثيرة، وكلها دالة على رحمته وحكمته وعنايته، كوضع الحواس الخمس وباقى الأعضاء فى جسم الإنسان مثلاً، فإن إرسال من يهديهم إلى طريق السعادة الأبدية، ويكف شر بعض بنى آدم عن بعض لينتظم أمرهم- أولى.

وما دل عليه التواتر أن جماعة من الرجال أعلنوا أنهم رسل الله تعالى وأيدوا ذلك بمعجزات ظهرت على أيديهم.

فإذا ثبت بهاتين الحجتين إثبات نبوة الأنبياء والرسل فهما بعينهما تثبتان نبوة محمد ﷺ.

ويضيف إلى ذلك البغدادى قوله: «أما الأولى فلأنه بُعث على فترة من الرسل طويلة، وقد أكل العالم بعضه بعضًا خصوصًا العرب فى جاهليتها وغاراتها- وكانوا يعبدون الأوثان، والنصارى: الصلبان، والفرس: النيران، وغير ذلك من المنكرات، فأزال الله به ذلك وأبدل الناس به خير ما ينبغى. وأما الثانية: فلأنه ثبت بالتواتر الكامل الشروط- أنه عليه السلام- أدعى للنبوة وظهرت على يديه معجزات خارقة..

(١) ص١٧ من كتاب (الخالدون مائة) ترجمة أنيس منصور المكتب المصرى الحديث بالقاهرة ١٩٨٤م.

ثم توفى ﷺ «على أوضح سنن، وأظهر طريقة، وأزكاها وأزهدها فى الدنيا، ودعى الناس إلى ذلك..»[1].

وقد عرض ابن تيمية للمعانى المتعددة لكلمة (الفارقليط)، ليستخلص منها أنها كلها تنطبق على نبينا «ﷺ».

فإن معنى «الفارقليط» إن كان هو الحامد أو الحمّاد أو الحمد أو المُعزّ فهذا الوصف ظاهر فى محمد «ﷺ» فإنه وأمته الحمّادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد والحمد مفتاح خطبه ومفتاح صلاته.

وأما من فسره بالمعز ﷺ فلم يعرف قط نبى أعز أهل التوحيد لله والإيمان كما أعزهم محمد «ﷺ» فهو أحق باسم المعز من كل إنسان.

وأما معنى المخلّص، فهو أيضًا ظاهر فيه فإن المسيح هو المخلص الأول، كما ذكر فى الإنجيل، وهو معروف عند النصارى أن المسيح صلوات الله عليه قد سمى مخلصًا، فيكون المسيح هو الفارقليط الأول، وقد بشّر بفارقليط آخر فإنه قال (وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطًا آخر، يثبت معكم إلى الأبد) فهذه بشارة بمخلص ثان والمسيح هو المخلص الأول»[2].

محرم سنة ١٤١٩ هـ

وبالله التوفيق

●●●

(١) الانتصارات الإسلامية- فى علم مقارنة الأديان- نجم الدين البغدادى الطوفى ص٤٩ دراسة وتحقيق د. أحمد حجازى السقا دار البيان بمصر ١٩٨٣م.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ٤ ص١٦ ط. المدنى بمصر.

المراجع

١- القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص٦.

(دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة) موريس بوكاى ط دار المعارف بمصر ١٩٧٩م.

٢- الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، د/ عبد الرحمن بدوى ص٩ مكتبة مدبولى الصغير بمصر ١٩٩٨م.

للدكتور بدوى كتاب ثانٍ عن «الدفاع عن محمد- ﷺ-».

٣- (صراع الحضارات أم حوار الثقافات) ص٢١-٢٢ تحرير د. فخرى لبيب- القاهرة ١٠- ١٢ مارس ١٩٩٧م.

منظمة تضامن الشعوب الإفريقية الأسيوية.

٤- الإسلام والقوى الدولية، د. حامد ربيع ص٣٤

ط دار الموقف العربى- القاهرة ١٩٨١

ويُنظر أيضًا كتاب (الدين والدولة فى الواقع الغربى) دراسة لموقع الدين فى الدولة القومية د. عبد العزيز صقر

دار ومكتبة العلم للجميع بالقاهرة ١٤١٥م/ ١٩٩٥م.

٥- النبوءة والسياسة، جريس هالسل ص١٩

(الإنجيليون العسكريون فى الطريق إلى الحرب النووية)

ترجمة محمد السمّاك- دار الشروق ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٦- الصهيونية غير اليهودية- رجينا الشريف ص٥٤-٥٥

ترجمة أحمد عبد العزيز.

سلسلة «عالم المعرفة» بالكويت ربيع الأول ١٤٠٦هـ/ ديسمبر ١٩٨٥م

ويُنظر أيضًا كتاب (البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني) .

د . يوسف الحسن - مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة أطروحات الدكتوراه - بيروت - فبراير ١٩٩٠م .

٧- واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام ، وحيد الدين حامد ص٢٥٧

ترجمة د . سمير عبد الحميد - دار الصحوة بالقاهرة ١٤٠٥ / ١٩٨٤ م .

٨- (الخالدون مائة ، أعظمهم محمد - ﷺ -) ترجمة أنيس منصور ص١٧ المكتب المصري الحديث بالقاهرة ١٩٨٤م .

٩- الفكر الديني اليهودي ، أطواره ومذاهبه ص١٣٠

د . حسن ظاظا - دار القلم - دمشق دار العلوم والثقافة بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

١٠- (الكتب المقدسة في ميزان التوثيق) عبد الوهاب طويلة ص١٣٢ - ١٣٣

ط دار السلام بالقاهرة ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م .

١١- نفسه ص١٣٤ .

١٢- نفسه ص١٣٥ .

١٣- أبو الأنبياء - عليه السلام - للعقاد «كتاب اليوم» ١٩٥٣م .

١٤- اليهودية - مقارنة الأديان د . أحمد شلبي ص٢٠٢ .

مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٨م .

١٥- نفسه ٢٠٣ باختصار .

ويُنظر (عبقرية المسيح) للعقاد ص٢٧ كتاب العدد ٣١٧ يناير ١٩٩١م .

١٦- الإيمان والإسلام والإحسان في مقارنة الأديان ، فرتجوف شيئون ص٧٢

ترجمة نهاد خياطة - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م .



١٧- مجموعة فتاوى ابن تيمية جـ١٩ ص١٦٩ وما بعدها باختصار.

١٨- نفسه ص٣٠٨.

١٩- القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاى- دار المعارف بمصر ١٩٧٩م.

٢٠- من سقراط إلى سارتر، هنرى توماس ودانالى توماس ص١٠٠، ١٠٤، ١٠٧ ترجمة عثمان نويّة ط الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.

٢١- تاريخ الحضارة الإسلامية ف. بارتولد ص٤٧ ترجمة حمزه طاهر ط دار المعارف بمصر ١٩٨٣م.

٢٢- الإسلام تشكيل جديد للحضارة- للأمينى ص٢١، ٣٤ ترجمة د/ مقتدى حسن ياسين مراجعة د. عبد الحليم عويس دار العلوم بالرياض ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م.

٢٣- دقائق التفسير جـ٢ ص٣٢٦ جمع وتحقيق د. محمد الجليند دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.

٢٤- النصيحة الإيمانية، نصر بن يحى ص٥٥ تقديم وتحقيق د/ أحمد حجازى السقا مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م.

٢٥- مقال بعنوان (العالم المصرى العالمى أحمد زويل يعيد أمجاد حضارة العرب الزاهرة: اكتشف زمنًا غير زماننا المعهود حصل به على أكبر وسام علمى فى العالم بقلم محمود أبو الفيض المنوفى الحسينى ص٣٠ مجلة التصوف الإسلامى محرم ١٤١٩هـ/ مايو ١٩٩٨م.

٢٦- واقعنا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام، وحيد الدين حامد ص, ٢٤٦

٢٧- الحقيقة المطلقة: الله والدين والإنسان ص, ١٢٣

د. مهندس محمد الحسينى إسماعيل- مطابع الأزهر ١٩٩٥م.

٢٨- نفسه.

٢٩- المسلمون والعلم د. محمد عبد السلام (حائز على جائزة نوبل) ترجمة د. ممدوح كامل الموصلى- كتاب الغد بالقاهرة ١٩٨٦م.

المبحث الثانى

تحصين الهوية الإسلامية من حملات التغريب وأزمات العصر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، وبعد:

فإن هذا البحث ليس محاولة لإعطاء فكرة كاملة عن (ثقافة المسلم المعاصر) فحسب، وإنما يسعى لتحقيق بعض أهم الأهداف المتصلة بالموضوع وهى:

أولاً: تحقيق الذات فى مشروع النهضة الإسلامية المعاصرة:

ويتطلب ذلك توجيه العناية إلى الأولويات فى مشروع النهضة الإسلامية المعاصرة مع مجابهة التحديات التى تحاصر الأمة الإسلامية، وذلك عن اقتناع بالرأى القائل بأن «جوهر التحديث هو تحقيق الذات بالمعنى الحضارى . . . ويتحقق بتوظيف طاقة الإيمان والانتماء الحضارى، وإيقاظ القوى الموحدة فى النسيج الاجتماعى الحضارى للمجتمع»[1]- بل للأمة أيضاً- فإن العالم الإسلامى لا يشعر بوحدته إلا بالإسلام.

يؤيد ذلك التجربة التاريخية الواقعية التى تشع بالدليل أمام دارسى الحضارات إذ قامت الحضارة الإسلامية فى رقعة موزعة:

حدها الشمالى مدينة الرها، والجنوبى سوريا وفلسطين، وتحد من الشرق بالمنطقة التى سيطرت عليها المزدكية . . . وفى أقصى الجنوب تحد بتلك البيئة التى ستكون مهد الإسلام، وأخيراً فى أقصى الشمال تقع مدينة بيزنطة . . . «هذا العالم المختلط المشتت المتشعب الأطراف لم يستطع أن يشعر بوحدته إلا على يد الإسلام»[2].

وفى ضوء هذه الحقيقة، ينبغى على المسلم المعاصر أن يوقن بإمكان ازدهار حضارته من جديد بالرغم من أحوال الأمة السيئة.

يقول الكاتب السويسرى المهتدى للإسلام (روجيه باسكويه): «أظهر العالم الإسلامى جموداً باعثاً على الأسى فى مقابل المد الأوروبى فى كل المجالات، ولكن مهما أصبحت (الشعوب الإسلامية) خاملة ناعسة، فإنها بقيت مخلصة للإسلام . . .

فقدت بكل تأكيد كل مفاتيح القوى الدنيوية، ولكن احتفظت بمفاتيح السماء» (٣).

ويعلل ذلك بأن الثقافة الإسلامية تمتاز عن غيرها من الثقافات بأنها نبعت مباشرة من التنزيل «أى من الحقيقة الخالدة السامية، وليس من تأملات أو اجتهادات الفلاسفة والمفكرين»[٤].

ثانيا: تحصين الهوية الإسلامية من حملات التغريب وأزمات العصر:

يطول الحديث عن حملات التغريب- أو الغزو الفكرى- ولكننا نلخصه من حيث آثاره فى الإنسان من جهتين:

١- ما يطلق عليه (غسيل المخ) وهو حسب تعريف الدكتور زكى نجيب محمود أن:

«يتحكم من أراد أن يتحكم فى تفريغ مخ الإنسان من محتواه.. لتعبئته بمحتوى آخر وفى تشكيل سلوكه بعبارات جديدة غير عاداته السابقة»[٥]، وكان يحدث ذلك لأسرى الحرب وهو ما يحدث شىء منه بطريق الدعاية ووسائل الإعلام.

٢- شحن الإنسان بالشحنة الفكرية والسلوكية:

وما نقصده بالعصر: الحضارة التى تسوده- فإنه عصر متغرب، كذلك ما يتعاقب فيه من وقائع وأحداث سلمًا وحربًا، وما تنتجه قرائح علمائه وفلاسفته من مذاهب ونظريات فى ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية والأخلاق والآداب والفنون وما تظهر فيه الاكتشافات المتوالية فى مجالات الطب والزراعة والصناعات وعلوم الفضاء، وكذلك آثار علاقات الدول ومنافساتها وحروبها، وما أصاب الأمة الإسلامية من محن وكوارث وأزمات، وتداعيات ذلك كله على المسلم المعاصر، «فإن الأزمة التى تأخذ بخناق العالم الإسلامى والعربى بجوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية والاجتماعية جعلت الناس أكثر اتجاهاً لدينهم يستلهمونه الحلول»[٦].

وفى ظل التقدم المتواصل فى وسائل الاتصال اليوم، أصبحت اليد الطولى فى عصرنا للأعلى صوتًا، لا للأقوى حجة، بفعل أجهزة الإعلام الجبَّارة التى لم يعرف لها العالم مثيلاً من قبل، وأصبح فى قدرة من يملكها فرض ثقافته على الآخرين فى ظل ما

يسمى (بالعولمة). ويصف الكاتب الفرنسي لاتوش ما يسميه (بالعولمة المباشرة) بأنها تتجاوز (النزعة القومية)، ويصفها بأنها (تشكل التدفقات الإعلامية بواسطة الأقمار الصناعية للاتصالات البعيدة وتقنية معالجة المعلومات بالكمبيوتر تشكل رغبات وحاجات وأشكال سلوك وعقليات وتظم تعليم وأنماط حياة المتقبلين، وينتج عنها- وهذا ما يعنينا هنا ببحثنا- «فقدان الهوية الثقافية المؤكد، كما يسهم في زعزعة الهوية القومية سياسياً واقتصادياً، وحتى ما يتبقى من الإبداعية القومية، يجد نفسه في حالة تبعية إزاء ثقافة أجنبية».

ويأتي وصف جاك إلول لهذا الواقع أكثر صراحة وصدقًا: فيقول: «بفضل أروع وسائل النشر الممكنة، يجرى اليوم نشر ثقافة يمكن القول عنها في أفضل الأحوال أنها غياب للثقافة، وتم إنتاجها عشوائيًا»[٧]. ويؤكد ذلك أيضًا الدكتور- مراد هوفمان: «فقد ربح الغرب سباق الإعلام من زمان، ليعرض أفكاره على المسلمين بالجملة، ويتحكم في حياتهم كالطاعون»[٨].

وهل نشك بعد هذا التحليل الواقعي الصريح الذي نلمس آثاره ليل نهار، هل نشك بأن الغزو الثقافي هو فعلاً- كما وصفه د. حامد ربيع- حرب فكرية؟

ولكن. ماذا أعددنا لها؟ وماذا فعلنا لكي نجعل المسلم المعاصر يصمد في هذه الحرب؟ يقول الدكتور حامد ربيع: «وككل صراع، فإن المقاومة تفترض من جانب التقوية الذاتية لأنه طالما أن الجسد المصارع ضعيف، فإن أي صدمة من الخارج قادرة على أن تنال منه، ومن جانب آخر، علينا أن نتذكر أن خير وسيلة للدفاع هي البدء بالهجوم»[٩].

إن أول أسلحة الصمود- هو المحافظة على الذاتية- بناء على الآيات والأحاديث التي تكاد تفوق الحصر- هي الاستمساك بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله «ﷺ».

أخرج مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله «ﷺ» كان يقول في خطبته: **«أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»**[١٠].

ونعود إلى اقتراح الدكتور حامد ربيع (خير وسيلة للدفاع هى البدء بالهجوم فإنه لا يقصد الهجوم العسكرى فى ساحات القتال قطعًا، ولكنه- فى هذا المجال الثقافى- تأكيد الثقة فى النفس حتى تتحول من حالة (القابلية للاستعمار) التى حذَّر منها الأستاذ/ مالك بن نبى، إلى حالة إيجابية- وكأنها تأخذ المبادرة بالهجوم وذلكم بمعرفة أوجه النقص فى هذه الحضارة وأزماتها- هذا هو السلاح الأول.

أما السلاح الثانى فإنه بمقدورنا- لو فهمنا تراثنا حق الفهم- أن نؤدى دورنا كما يرى د. زكى نجيب محمود- فى بناء الحضارة المعاصرة:

١- وأول الأسلحة الهجومية فى تلك المعركة الثقافية هى معرفة الوجه الآخر للحضارة المعاصرة، أى الأزمات الخانقة التى تعانيها بشهادة علمائها وفلاسفتها الحريصين على بقائها، فقد جمعت د/ أدريين كوخ- أستاذة التاريخ بجامعة كاليفورنيا آراء بعضهم فى كتابها بعنوان (آراء فلسفية فى أزمة العصر)، وسجلت انزعاجها الشديد بالمقدمة، فكتبت (هذا القرن الفظيع: من ذا الذى يتدبر مسيره وتاريخه ولا يحكم عليه بالفظاعة؟! ومن ذا ينكر أن الثقة التى كانت تملأ نفوسًا فى مطلعه قد زالت من النفوس؟)، ثم تستطرد فى كلام طويل منتهية إلى وصف الأزمة بأنها أعمق وأوسع انتشاراً من أية أزمة أخرى عرفها تاريخ الإنسان، لأنها أزمة الوجود البشرى ذاته»[١١].

وقد أجاد هايدجر- عميد فلاسفة القرن العشرين- فى وصف حال هذا العصر «بأنه عصر يبدو كقصر شامخ فى منظر كئيب. سادته يعانون من الأرق والملل والقلق، وخدامه يقاسون من المرض والجهل والجوع»[١٢].

٢- دورنا فى الإسهام فى بناء حضارة العصر:

قبل الحديث عن الإسهام فى حضارة العصر، سنمهد بكلمة عن العصر وعلاقتنا به عند الدكتور زكى نجيب محمود. إذ يرى أن (العصر) ليس شيئًا محدداً، وإنما هو من خضم الأحداث والكائنات. وإذا ما تساءلنا: ما هى ثقافة العصر التى نواجهها أو لا نواجهها؟

يإجابته على السؤال يضرب مثالاً لحدث ضخم كإطلاق الصواريخ التى تغزو الفضاء، ولكن الضجة التى يُحدثها تكاد لا تكون جزءاً من ثقافة عصرنا نحن، ثم

يستطرد قائلاً: «لكن قارن ذلك بحدث آخر، هو إقحام إسرائيل على أرضنا، وانظر بأي معنى وإلى أي مدى قد دخل هذا الجانب من الاستعمار الذى هو من علامات العصر فى دنيانا الثقافية، بحيث لم يعد منا واحد يستطيع أن يغضّ عنه النظر»[١٣].

وبعد هذا التمهيد، حدد نقطة البداية بين العالم العربى الحديث وحضارة العصر، «بمجىء هذه الحضارة غازية غالبة متسلطة»[١٤].

وتحت عنوان (موقف العرب من المذاهب الفلسفية المعاصرة) يطوف بنا فيلسوفنا الأديب باتجاهات الفلسفة ليسوقنا إلى نتيجتين هما «أن الفكر وعمليات التغيير وجهان لشيء واحد»[١٥]:

«وهو الدرس الذى نتعلمه من مذاهب الفلسفة المعاصرة جميعاً، وذلك وحده جواز المرور الذى لا يمكنك الدخول فى أجواء العصر إلا به»[١٦].

ويقرر فى نهاية البحث أن هذا الذى يتطلبه منا العصر هو نفسه الذى ورثناه من مبادئ تراثنا الفكرى «إن القرآن الكريم كلما وجه الخطاب إلى (الذين آمنوا) أضاف إلى ذلك قوله: (وعملوا الصالحات) كأن الإيمان لا يكون إيمانًا كاملاً إلا إذا اقترن بالعمل الصالح»[١٧].

لذلك يشترط لكى نجدى المبادئ، أن نربط القول بالعمل، وعندئذ «ننخرط فى تيار عصرنا، وفى الوقت نفسه نلتزم ميراثًا كريمًا ورثناه»[١٨].

أما عن سلبيات العصر ومساوئه، فإنه «بشهادة رجال الفكر أجمعين- إنه عصر أدى بشبابه إلى حالة من التمزق والتفسخ والضياع»[١٩].

فما هو دورنا إزاء أزمة العصر؟

يقرر الدكتور/ زكى نجيب محمود أولاً أن أهم ما يميز عقيدة المسلم هى عقيدة التوحيد التى ينبنى عليها ما يسميه (البناء المتسق) فى القيم فيضمن للإنسان ألا يتمزق سلوكه وأن ننقذ أنفسنا من نقائص عصرنا، ثم يمضى قائلاً «فلو استطعنا نحن أن نقدم للعالم مجموعة متسقة الأجزاء من القيم الهادية للإنسان على طريق الحياة، كان هذا دورنا فى بناء الحضارة المعاصرة»[٢٠].

وعندما استمع فى اجتماع رسمى لقول مسئول كبير «علينا تحفيظ شبابنا القرآن الكريم ليقوّموا تلك الحضارة» عارضه مصححاً رأيه، فالأصوب «أن يقول إن علينا أن نزيد من تحفيظ شبابنا القرآن ليستطيعوا المشاركة فى حضارة عصرهم»(٢١).

ثالثاً: ضرورة ثبات المسلم المعاصر على عقائده ومبادئه:

إن المسلم المعاصر لا يختلف عن المسلم طوال العصور، أى منذ عصر النبى «ﷺ»، إذ أنه يتسلح بالعقيدة الإيمانية والقيم الخلقية، ويظل متمسكاً بالكتاب والسنة ويتزوّد بالمعرفة والعلوم النافعة لعمارة الأرض، ويمضى فى حياته الدنيوية قدماً بين أمر يأتمر به ونهى ينتهى عنه، وقدّر يصبر عليه ملتزماً بشريعة ربه عز وجل، آملاً فى رضوانه وجنته فى الآخرة.

وعندما نتكلم عن المسلم المعاصر، لا نغفل هذه الحقيقة، حتى لا يظن الظان أن هذا العصر يعطى صفة أخرى للمسلم لم تكن لغيره فيما سبق من عصور، أو تدفعه ليجعل الهيمنة لمذاهب العصر فيخضع لها على حساب دينه «كأن يحلل حراماً أو يحرم حلالاً تحت شعار العصرية».

تقول الكاتبة الأمريكية المسلمة (مريم جميلة):

«إن البلاد الإسلامية قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة، ومنها مصطلح (العصرية) وقد جنى هذا المصطلح على الإسلام جناية كبرى»(٢٢).

وقد لاحظنا من دراسة بعض آراء المهتدين للإسلام من الغربيين- أمثال محمد أسد ومريم جميلة ومراد هوفمان- تحذيرنا الشديد من اللهث وراء الأفكار الوافدة بحجة ملاحقة العصر بعد أن عرفوها قبلنا.

وها هو د. مراد هوفمان يضع النقاط على الحروف، ويفصل ما أجملته مريم جميلة، يقول د. مراد هوفمان:

«ومن البديهى بعد ذلك أن يكون المخطط الإسلامى لفلسفة الحياة والذى يفرض نفسه بديلاً، قادماً من بيئة مخالفة، مواجهة حقيقة تصدم الفلسفة العصرية الغربية،

وجهلها بالقيم، وإباحيتها المطلقة لكل شئ حسب التعبير الأمريكي «لا شئ ممنوع» هذه المدنية العصرية الغربية تصطدم بالمخطط الإسلامي المضاد الجاد، الذي يراه البعض عتيقًا باليًا، لا لشئ سوى قيام صرحه واستمراره، غير مرتبط بعنصر الزمان، بمعنى صلاحيته لكل العصور»(٢٣).

وكان الدكتور زكي نجيب محمود حريصًا أيضًا على الاستمساك بالثوابت، كالعقيدة واللغة والقيم الأخلاقية، فإنه في تحليله لمواقف الأمة من الأفكار الأساسية التي صنعت مناخ الحياة في أوروبا وأمريكا، لاحظ أن هناك فئة رافضة لتلك الأفكار. وأخرى تتلقى الأفكار وكأنها وحي من السماء، ثم يصوب موقف الفئة الثالثة وهي التي تهتدي بفطرتها إلى جادة الطريق، فتتلقى أفكار العصر لتعجنها عجنًا مع أصولنا التي أسميناها فيما أسلفنا بالثوابت، كالعقيدةواللغة والقيم الأخلاقية التي تفرض على حاملها ألا يضحي بإنسانية الإنسان لأي سبب من الأسباب»(٢٤).

كذلك على المسلم المعاصر ألا يهتز أمام حملات التشكيك في أنظمة الإسلام وتشريعاته بالموازنة بنظم أوروبا.

ولا تأتي هذه التوصية على لسان أحد مسلمي الشرق، بل على لسان مسلم غربي تشبع بثقافة أوروبا وعاش في ظل أنظمتها (ولا يُنبئك مثل خبير).

يقول د. هوفمان: «يجب ألا يتلجلج المسلمون أمام مسائل مثل الديموقراطية، الجمهورية، فصل السلطات، فعليهم أن يؤكدوا لمن يتحداهم عدم وجود ما يخالف الإسلام أو يعاديه في ذلك»(٢٥).

نستخلص إذن من الآراء السابقة أنه بوسع المسلم المعاصر الحياة في ظل حضارة مغايرة لحضارته، دون التضحية بهويته وثقافته الإسلامية.

وقد تحققت أفضل الأمثلة في العصر الحديث بواسطة المسلمين الذين ابتلوا بحكم الاتحاد السوفيتي، وخضعوا لأشد أنواع (غسيل المخ)، إذ تتضاءل بجوارها آثار التعليم العلماني الذي طبقته دول الاستعمار الغربي أمثال إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وغيرها على مستعمرتها وفرضته على المسلمين فرضًا، وسنختار تجربة الرئيس بيجوفيتش:

ويتطلب شرح هذه التجربة للإفادة منها وضمان استمراريتها، أن نعرض بإيجاز لموضوع (الثقافة والحضارة) ومدى التمايز بينهما:

الثقافة والحضارة:

ولكى نتجنب الاستغراق فى التعريفات النظرية بين الثقافة والحضارة، والتمييز بينهما نفضل اختيار دراسة الرئيس على عزت بيجوفيتش لأنه لم يكتف بالتعريفات، بل تتبع الجذور التاريخية وشرح المفردات اللغوية، فدلّنا على السلوك العلمى الذى اجتاز طريقه هو نفسه، لأنه عانى واقعيًا بشدة بسبب استمساكه بثقافته الإسلامية أمام جيوش الإلحاد، فكيف استطاع الحياة فى ظل حضارة مضادة لثقافته؟ وقد قدم بحثه المبتكر- دون أن يدرى لمسلمى العصر لحثهم على الصبر والمثابرة مهما اشتدت المحن، فمهما كانت المحن، فإن الإسلام «أخذ اسمه من قوانينه ونظامه ومحرماته ومجاهدة النفس والبدن التى يطالب الإنسان بها، وأيضًا من قوة النفس فى مواجهة محن الزمان»[٢٦].

فمن رأيه أن الثقافة وثيقة الصلة بالدين، وتبدأ بالتمهيد السماوى، ولا بد فى الدين من عبادة، وهى لصيقة بالروح- أى الإنسان من الداخل.

أما الحضارة فتتصل بالأدوات وتطورها، وهو تطور خارجى كمى.

وبتحليله اللغوى للفظين يذكر أن كلمة ثقافة (Culture) تتصل من ناحية الأصل اللغوى بكلمة (Cult) أى: عبادة، وهى باللاتينية (Cultus)، وهما ذو أصل مشترك من الكلمة الهند أوروبية (Kwel).

أما كلمة حضارة (Civilization) فمتصلة بكلمة وطن (Civis) أو موطن.

وبعد هذه التعريفات يشرح الرئيس على عزت بيجوفيتش آثارها على حياة الإنسان بنوعيتها- حسب تعبيره- البرانية والجوانية، ليصل إلى بيان الاختلاف البيِّن بين حضارة العصر وحكمة الإسلام، لأن الحضارة بشعار «انتج لتربح، واربح لتبدد» تغرى بالحياة البرانية على حساب الحياة الجوانية. أما الثقافة (وفقًا لطبيعتها الدينية) فتميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان، أو الحد من درجات إشباعها.

ثم يميز بين الحضارة المعاصرة التى ترفع شعار «اطلق رغبات جديدة دائمًا وأبدًا»، وحكمة الإسلام فى «كبح الرغبات»(٢٧).

لذلك استطاع الرئيس على عزت بيجوفيتش ممارسة حياته فى ظل مناخ إلحادى ولم يهتز، بل ظل مستمسكًا بثقافته الإسلامية، فكان كسفينة النجاة فى بحر الإلحاد المتلاطم، وكان كالرُّبان الماهر الماسك بشراعه بقوة، مكافحًا تلاطم الأمواج ومقاومًا شدة الرياح.

وبالرغم من آرائه النقدية العنيفة لهذه الحضارة فلسفيًا وعلميًا ودينيًا بكتابه الجامع (الإسلام بين الشرق والغرب) فإنه لم يرفضها، وطالب فقط بتحطيم الأسطورة التى تحيط بها.

«هذا النقد للحضارة ليس دعوة لرفضها، فالحضارة لا يمكن رفضها حتى لو رغبنا نحن فى ذلك، إنما الشىء الوحيد الضرورى والممكن هو أن تحطم الأسطورة التى تحيط بها، فإن تحطيم هذه الأسطورة سيؤدى إلى مزيد من أنسنة هذا العالم، وهى مهمة تنتمى بطبيعتها إلى الثقافة»(٢٨).

رابعًا: التثقيف الذاتى للمسلم المعاصر

إن أول سؤال يطرأ على الذهن حول الحديث عن واجب المسلم المعاصر فى التثقيف الذاتى هو:

هل يصح له الاطلاع المباشر على أصول الإسلام - الكتاب والسنة - ثم كتب الحديث والفقه ليتزود بالعلوم الشرعية ويستنتج الأحكام الفقهية، أم أن الأمر قاصر على العلماء المتخصصين؟

كانت المسألة محل نقاش بين العلماء، فرأى البعض أنه من اختصاص الجماعة التشريعية فى الأمة المكونة من العدول ذوى البصيرة النافذة بأحكام الشريعة ومصالح الدنيا) لذلك فلا يصح لغيرهم استنباط الأحكام من مصادر الإسلام.

ولكن الدكتور/ محمد عبد الله دراز يوسع دائرة الإباحة باعتبار أن هناك فائدة فى دراسة موضوعات الأصول لغير المجتهد: «فإنا وإن لم نصل إلى مرتبة الاجتهاد

والقدرة على الاستنباط فإنا نصل إلى معرفة مقاصد الشرع وسر أحكام الشريعة، وإنه لهدى تسكن إليه النفس، وإنه لنور يشرق فى نواحى القلب المؤمن ويدفع عنه الحيرة ويطرد ما يلم به من خواطر»(٢٩).

ونحن نرجح الرأى الثانى:

ففى زمن انتشر فيه العلم وكثر العلماء، وفاضت المكتبة الإسلامية بذخائر التراث، وتنافس العلماء فى التأليف فى شتى الموضوعات التى تفى باحياجات المسلم فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق(٣٠)، ومن ثم أصبحت الأحوال مهيأة لكى يكتسب المسلم المعاصر ثقافته الإسلامية من مصادرها، ورائده فى ذلك كله التقوى والإخلاص فى تحرى الحق لا سيما أن الإسلام يحض على العلم والتعلم.

إن تقدير الإسلام للعلم والعلماء أمر لا يتنازع فيه أحد، فإذا (كان التعلم حقًا لكل إنسان كما يقول الميثاق العالمى وهو هدف مثالى عال فإن التعلم فى الإسلام ليس مجرد حق، بل هو فريضة حسب حديث الرسول ﷺ (طلب العلم فريضة على كل مسلم)-رواية البيهقى- أى ومسلمة.

وفى ذلك أيضًا يقول رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة**» رواه مسلم. فالتعلم فى الإسلام مرتبط بالدين بينما هو منفصل عنه فى المناهج الغربية، وفيما رواه البخارى قال النبى ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين وإنما العلم بالتعلم**».

والفقه هو العلم بدقائق الأمور والتعلم هو أثر العلم فى الإنسان وتكوينه لا مجرد حفظ المعارف(٣١).

كذلك تستند فى ترجيح إباحة التثقيف الذاتى للمسلم المعاصر إلى الضرورة:

«فنحن الآن فى ظروف طارئة لم تمر بها الأمة الإسلامية من قبل، فلا يكاد التاريخ يذكر أن المسلمين ظلُّوا بلا خلافة ولا رمز يرفع راية الإسلام ويدافع عنه وعن أبنائه إلا فى هذا العصر الذى نعيش فيه، هذه الظروف الطارئة تستوجب من كل منا أن يتزود-بعد تقوى الله- بالعلم الشرعى الذى يوسع آفاقه ومداركه، ويعينه على استيعاب

الظروف المحيطة به في ظل ضوابط الشرع»[٣٢].

المسلم في ظل ذلك كله مخيّر بين الاكتفاء بالفروض أو تنمية الإيمان بالطاعات وفعل الخيرات:

فعن طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه- قال:

جاء رجل من أهل نجد إلى رسول الله «ﷺ» ثائر الرأس، نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله «ﷺ» خمس صلوات في اليوم والليلة»

فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال ﷺ: «لا إلا أن تطوع».

قال رسول الله- ﷺ- : «وصيام رمضان».

قال هل عليَّ غيره؟ قال ﷺ: «لا إلا أن تطوع».

قال: وذكر له رسول الله «ﷺ» الزكاة،

قال: هل عليَّ غيرها؟ قال ﷺ: «لا إلا أن تطوع».

قال: فأدبر الرجل وهو يقول: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق». رواه البخاري ومسلم.

ومع النظر إلى تفاضل الأعمال وتعدد شُعَب الإيمان: يقول الدكتور/ عبد الكريم زيدان: تحت عنوان (أي الأعمال أفضل)؟

«لا شك في تفاضل الأعمال الصالحة من حيث الأجر والثواب ومن حيث درجة طلب الشرع لها، فالفرض أفضل من المندوب، وما عظم نفعه للجماعة أفضل مما اقتصر نفعه على فاعله، والقاعدة في أفضل الأعمال الصالحة بالنسبة لشخص ما هو العمل المطلوب منه شرعًا في وقت معين وظرف معين، فالصلاة حين حلول وقتها أفضل من غيرها وأوجب على المسلم أن ينشغل بها، والجهاد في وقته أفضل بالنسبة لمن وجب عليه القيام بنوافل العبادات وطلب العلم، والصيام في وقته أفضل بالنسبة لمن وجب عليه الانشغال بغيره من العبادات وهكذا»[٣٣].

كذلك تتفاوت المحرمات، فعلى رأسها السبع الموبقات، فعن أبي هريرة- رضي الله

عنه- عن النبى ﷺ قال:

«اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟

قال ﷺ: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى.

والمسلم قبل ذلك وبعده مسئول أمام الله عز وجل:

فعن أبى هريرة- رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع:

عن عمره فيما أفناه؟، وعن علمه ماذا عملَ به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟، وعن جسمه فيما أبلاه؟». رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح

خامساً: ثقافة المرأة المسلمة المعاصرة:

إننا لم نضع هذا البحث فى النهاية تهويناً لشأن المرأة المسلمة ولا تقليلاً من مكانتها، فإنها- كما هو معلوم طبقاً لشريعة الإسلام- على قدم المساواة فيما أوردناه فى تحمل المسئوليات والتكاليف الشرعية.

وقد وجّه القرآن الكريم الخطاب للرجل والمرأة معاً، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد توخينا ذلك فقط للاختصار وتفادياً للتكرار فإن كل ما عرضناه فى هذه الدراسة ينسحب على المرأة المسلمة أيضاً. مع تنوع مسئوليات كل منهما. ولا ننسى أن (النساء شقائق الرجال).

وكيف نغفل عن مكانتهن وهن الأمهات والزوجات والأخوات والبنات والعمّات والخالات والجدات؟

لقد قمن بأدوارهن خير قيام طوال تاريخ حضارتنا منذ الصحابيات الجليلات ومن

أتى بعدهن، حيث زيَّنَّ القادة وأبطال الجهاد والعلماء والأمراء والفقهاء، ومنهن من أسهمن في الحياة الثقافية الإسلامية، في الفقه والأدب واللغة والتصوُّف والشِّعر، وربما لم تسجل صفحات التاريخ أسماءهن كلّهن، ولكنهن وقفن جميعاً وراء الستار بعيداً عن الأضواء وحب الشهرة والمجد واكتفين بالجزاء الأوفى من الله عز وجل.

وقد وردت آية جامعة في سورة الأحزاب، اقترن فيها المسلمون والمسلمات في جميع أحوالهم وأعمالهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب الآية: ٣٥].

وقد أورد النيسابوري في تفسيره لهذه الآية، أنه «يروى أن أم سلمة أو كل أزواج النبي ﷺ قلن يا رسول الله: ذكر الله الرجال في القرآن ولم يذكر النساء فنحن نخاف أن لا يقبل منا طاعة فنزلت ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ وذكر لهن عشر مراتب:

الأولى: التسليم والانقياد لأمر الله. والثانية: الإيمان بكل ما يجب أن يصدق به، فإن المكلف يقول أولاً كل ما يقول الشارع فأنا أقبله فهذا الإسلام، فإذا قال له شيئاً وقبله صدق مقالته وصح اعتقاده، ثم إن اعتقاده يدعوه إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد هو المرتبة الثالثة، ثم إذا آمن وعمل صالحاً كعمل غيره يأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق في كلامه عند النصيحة، وهو المراد بقول: ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾.

ثم إن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال في قصة لقمان ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧] أي بسببه، ثم إنه إذا كمل في نفسه وكمل غيره قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله: ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ وفيه إشارة إلى الصلاة، لأن الخشوع من لوازمها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ

(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] فلذلك أردفها بالصدقة ثم الصيام المانع من شهوة البطن.. ثم ختم الأوصاف بقوله: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ يعنى أنهم فى جميع الأحوال يذكرون الله...»(٣٤).

أما عن اللغط الدائر حول مكانة المرأة فى الإسلام فإننا نأتى بخلاصة دراسة المستشرقة الألمانية زيجفرد هونكة، وقد عاشت فى أوروبا وقرأت العهدين القديم والجديد، واستطاعت عن علم أن تعرف مكانة المرأة فى الإسلام المعرفة الصحيحة، بعيداً عن مؤثرات الآراء الخاطئة التى تحملها أوروبا نحو الإسلام بعامة والمرأة المسلمة بخاصة.

وبقراءتها لترجمة معانى القرآن الكريم وفهمها أحكامه، أخذت تصحح مفاهيم مواطنيها فإن «القرآن الكريم بصفته الدستور الإلهى الذى ينص على التشريعات والحدود المنظمة لكافة المجالات الدينية والدنيوية، الشخصية والعامة، إنما يؤكد أنه لا فرق بين الذكر والأنثى لا فى الجوهر ولا فى التكريم، ويساوى بينهما مساواة تامة فى كافة العبادات وأمور العقيدة، وفى الناحية الخلقية البحتة، كما فى الأمور المادية والاجتماعية»(٣٥).

وبعد عرضها لنصوص العهد القديم التى تصور آدم وحواء فى صراع أزلى، وتتحول الصورة فى أسفار العهد الجديد إلى كراهية، تجد الإسلام لا يصف المرأة بأنها أصل الخطيئة ولا يعرف الصراع بين الجنسين لا فى الحياة الزوجية ولا فى الحياة العامة، بل يذكر القرآن ما جعله الله عز وجل من مودة ورحمة بين الأزواج: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

كذلك فإن الرسول «ﷺ» أوصى بالنساء خيراً كما أنه أوصى بالأمهات أكثر من وصيته بالآباء، وحرم القرآن وأد البنات وساوى بينهن وبين الذكور فى التربية.

ضرورة الجهاد العلمى المتواصل:

لم تعرف أمة الإسلام طبقة المثقفين النخبة أو الصفوة بالمفهوم الغربى المعاصر - أى التى تكتفى بالتزوُّد بالمعارف وتمضى فى تثقيف ذاتها إلى الدرجات العليا التى تؤهلها

إلى قيادة مجتمعاتها بقدر نبوغها فى مجالات الفكر المحض والنظريات، أى محصورة فى دائرة الفلك النظرى فحسب، وربّما كانت سلوكيات أغلبها مخالفة تماماً لما تدعو إليه من فضائل وآداب ومثل عليا!

لم تعرف أمة الإسلام هذا الصنف من الناس، ولكن عرفت الطبقات العليا من العلماء المجتهدين من أهل العقد والحل، والمتخصصين فى التفسير والحديث والفقه، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فضلاً عن قيامهم بالتعليم والوعظ والتربية، وكافتهم يحرصون فى المقام الأول على الاستناد إلى كتاب الله وسنة رسوله «ﷺ»، مع الحرص على العبادات والالتزام بالسلوك الإسلامى القويم[1].

فإن على المسلم المعاصر واجب الجهاد العلمى المتواصل، لتسلم له ثقافته ويحتفظ بأصالة شخصيته لكى لا تذوب بفعل أجهزة الإعلام الجبّارة المستندة على فكرة (العولمة) هادفة إلى صهر ثقافات الغير الغربية فى أتونها.

وتتميز الثقافة الإسلامية، فضلاً عن العقائد الإيمانية وفى أعلاها عقيدة التوحيد الخالصة من أية شائبة من الشرك، تتميز بالجانب التعبُّدى، والعنصر السلوكى المتمثل فى العبادات، ولها دور فى تنبيه الإنسان المسلم إلى حقيقة وجوده، وتعريفه بمغزى حياته، وحثّه على تحسين سلوكه دائماً إلى الأفضل، فيظل طوال حياته حريصاً على صلته بالله عز وجل:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]، أى متذللاً بالعبودية، مقراً بالألوهية ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مطيع لله فى أمره ونهيه، ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ بالطرف الأوثق، الذى لا يخاف انقطاعه من يمسك به، ﴿عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ مرجع كل أمر، خير وشر، وهو المجازى عنه[2].

وقد اجتهد العلماء والباحثون فى محاولة معرفة مغزى الأمور التعبّدية، ومن أقربها

---

(١) ينظر كتابنا «مع المسلمين الأوائل فى نظرتهم للحياة والقيم» ط. دار الدعوة بالإسكندرية.
(٢) مختصر تفسير الإمام الطبرى- دار الشروق.

توفيقًا ما ذهب إليه الأستاذ/ رءوف أبو سعده، فكتب «الصلاة تُريك نفسك فى صورة العبد خمس مرات فى اليوم والليلة، فتُذكّرك بمن أنت، والزكاة تدلّك على أنك عامل فى أرض الله بأمر الله، تؤدى خراجها فى سبيله عز وجل وفق ما أمرك، والصوم يذكرك بأنك طاعم من رزق الله، إن شاء أطعمك وإن شاء حرمك، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً يُذكرك بالمنتهى، فى يوم مجموع له الناس، وقد تقطع بهم الأسباب- إلا من وجهته عز وجل- كلهم ضارع إليه، يستغفره ويسأله ويستعينه»[1].

وفى هذا الغرض اخترنا رسالة الإمام ابن حزم لبعض إخوانه وأصدقائه الذين كتبوا إليه مسترشدين فكتب إليهم محدداً المسائل التى لا يستغنى عنها من له أقل اهتمام بدينه فكتب: «سألتم- وفقنا الله وإياكم- عن أقرب ما يعتب به العبد المجرم ربه يوم القيامة، وعن أفضل ما يُستنزل بع عفوه وفضله عز وجل، ويستدفع به سخطه وغضبه، وعن أنفع ما يشتغل به عن كثرة ذنوبه، وعن خير ما يسعى به المرء فى تكفير صغائره وكبائره»، ثم أجاب ذاكراً قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وحديث الرسول ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة للجمعة، كفارة لما بينهن ما لم تغشن بالكبائر»، فكان هذا الحديث موافقًا لقول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال ابن حزم «فصح أن بأداء الفرائض واجتناب الكبائر- أعاذنا الله وإياكم منها- تحط السيئات التى هى دون الكبائر. فبقى أمر الكبائر، فوجب النظر فيها، فوجدنا الناس قد اختلفوا فيها، فقالت طائفة: هى سبع، واحتجوا بحديث النبى ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، فذكر عليه السلام الشرك، والسحر، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

وروى عن ابن عباس أنه قال: (هى السبعين أقرب منها إلى السبع)، ثم ذكر الإمام ابن حزم بعد ذلك فمنها: قول الزور، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، والكذب عليه- ﷺ- وتعريض المرء أبويه للسب بأن يسب آباء الناس، وذكر ﷺ الوعيد الشديد

(١) ص١٦٩ جـ١ من كتاب (من إعجاز القرآن- رءوف أبو سعده/ دار الهلال سنة ١٩٩٣م.

بالنار على الكفر، وعلى كفر نعمة المحسن بالحق، وعلى النياحة فى المأتم، وحلق الشعر فيها، وخرق الجيوب، والتميمة، وترك التحفظ من البول، وقطيعة الرحم، وعلى الخمر، وعلى تعذيب الحيوان بغير الذكاة لأكل ما يحل أكله، وما أبيح أكله منها، وعلى إسبال الإزار، وعلى مانع فضل مائه من الشراب، وعلى الغلول، وعلى مبايعة الأئمة للدنيا . . . وعلى المقتطع بيمينه حق امرئ مسلم، وعلى الإمام الغاش لرعيته، وعلى من ادعى إلى غير أبيه . . . وعلى من غلّ، وعلى من ادعى ما ليس له، وعلى لاعن ما لا يستحق اللعن، وعلى بغض الأنصار، وعلى تارك الصلاة، وعلى تارك الزكاة وعلى بغض علىّ».

ويقول ابن حزم «وقد أطلت التفتيش على هذا منذ سنين، فصح لى أن كل ما يوعد الله به فى النار- أى فى القرآن- فهو من الكبائر». ثم يقدم أحاديث الرسول ﷺ كهدايا إلى أصحابه، وهى الدالة على الأذكار الشرعية وقراءة القرآن والاستغفار «فيستحب للمسلم الذى يطلب النجاة أن يأتى بما لعله أن يوارى ذنوبه ويوازن، وأن يواظب على قراءة القرآن فيختمه فى كل شهر مرة، فإن ختمه فى أقل فحسن، ما بين ما ذكرناه إلى أن يختمه فى ثلاث لا أقل، ولا يسع أحداً أن يختمه فى أقل من ذلك، ويواظب مع ذلك على قراءة قل هو الله أحد ولو فى كل ركعة من صلاته مع أم القرآن وسورة أخرى».

ويمضى ابن حزم فى تقديم هداياه «وليواظب على صلاة الفرض فى الجماعة»، وبخاصة صلاة الفجر والعشاء.

ثم أخذ يرتب الناس «على مراتب الحقائق فى دار القرار فى الآخرة- وأما الدنيا فمحل مبيت بؤسها منقضٍ، وسرورها متى كأن ذلك لم يكن- فوجدتها عشر مراتب:

فأولها: مرتبه عالم يُعَلّم دينهم، فإن كل من عمل بتعليمه أو علم شيئًا مما كان هو السبب فى علمه، فذلك العالم والمتعلم شريك فى الأجر إلى يوم القيامة على آباد الدهور.

والثانية: حكم عدل فإنه شريك لرعيته فى كل عمل خير عملوه فى ظل عدله وأمن سلطانه بالحق لا بالعدوان . . .

وأما الثالثة: مجاهد فى سبيل الله عز وجل، فإنه شريك لكل من يحميه فى كل عمل خير يعمله . . .

وبعد هذه مرتبة رابعة: هى مرتبة الحظوة والقربة، وهى حالة إنسان مسلم فتح الله له باباً من أبواب البر مضافاً إلى أداء فرائضه، إما فى كثرة الصيام، أو كثرة صدقة، أو كثرة صلاة ، أو كثرة حج وعمرة، وما أشبه ذلك . .

ثم مرتبة خامسة: وهى مرتبة الفوز والنجاة، وهى حالة إنسان مسلم يؤدى الفرائض ويتجنب الكبائر ويقتصر على ذلك . . .

ثم بعدها مرتبتان: وهما مرتبتا السلامة مع الحذر، وعاقبتهما محمودة، إلا أن ابتداءها مذموم مخوف هائل، وهما حال إنسان مسلم عمل خيراً كثيراً وشراً كثيراً، وأدى الفرائض وارتكب الكبائر، ثم رزقه الله التوبة قبل موته .

والثانية حال امرئ مسلم عمل حسنات وكبائر ومات مصراً، إلا أن حسناته أكثر من سيئاته، وهذان عذّرا ولكنهما فائزان ناجيان بضمان الله عز وجل لهما إذ يقول: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] ولقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة : ٦- ٧] وقوله : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ١١٤] ولا خلاف بين أحد من أهل السُّنة فيما مكنا من هنا» ص١٥٤ .

ثم مرتبة ثامنة: وهى مرتبة أهل الأعراف، وهى مرتبة خوف شديد وهول عظيم، إلا أن العاقبة إلى سلامة، وهى حال امرئ مسلم تساوت حسناته وكبائره. . .

ثم مرتبة تاسعة: وهى مرتبة نشبة ومحنة وبلية وورطة ومصيبة وداهية، نعوذ بالله منها، وإن كانت العاقبة إلى عفو وإقالة وخير، وهى حال امرئ مسلم خفت موازينه ورجحت كبائره على حسناته . . . وبعد وصف ابن حزم لمن على شاكلته فى الأحاديث الصحاح، يستطرد فيقول « فيبقى هؤلاء فى النار على قدر ما أسلفوا، حتى إذا ما بقوا

كما جاء في الحديث الصحيح « جاءت الشفاعة التي ادخرها الله لنبيه ﷺ» وجاءت الرحمة التي ادخرها لذلك اليوم الفظيع والموقف الشنيع وأخرجوا كلهم من النار فوجًا بعد فوج بعدما امتحشوا أو صاروا حممًا .. أي أنهم لا يُخلّدون في النار . . .

وأما المرتبة العاشرة فهي مرتبة السُّحق، والبعد، والهلكة الأبدية، وهي مرتبة من مات كفرًا، فهو مخلد في نار جهنم لا يخفف عنهم من عذابها، ولا يقضى عليهم فيموتوا . . . وبعد أن ينصح الإمام ابن حزم بالإكثار من النوافل، يرى أنه ما يلزم كل إنسان من حفظ القرآن فهو أم القرآن وشيء من القرآن معها، مذكرًا بفضل تعلم القرآن كما جاء في حديث الرسول ﷺ: «خيركم مَن تَعلَّم القرآن وعلَّمه».

ويحض إخوانه على طلب العلوم بأنواعها مع إخلاص النية فقد صح عن النبي «ﷺ» أنه قال: «**من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**» .. فالله الله عباد الله، تداركوا أنفسكم بتصفية نياتكم في هذا الباب وفي العمل المرغوب في الصلاة والصيام والصدقة، مع تحذيره الشديد من النفاق «**واعلموا رحمكم الله من أن تعمّد اللهو واللعب حتى مضى وقت صلاة مفروضة ولم يصلها، أخف ذنبًا عند الله ممن صلاها لأجل الناس ولولاهم ما صلاها...**».

وفي إجابته عن سؤال أي الأمور أفضل في النوافل: الصلاة أم الصيام أم الصدقة؟ يجيب الإمام ابن حزم «جاءت الرغائب في كل ذلك، وكلها فعل حسن، وما أحب للمؤمن أن يخلو من أن يضرب في هذه الثلاث بنصيب ولو بما قلّ».

ويستطرد في موضوع آخر «وأما ما سألتم عنه مما روى في حديث التنزُّل، وهل الإجابة مضمونة في تلك الساعة (يقصد صلاة الليل)، فحديث التنزل صحيح وقد قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، فإنما شرط الإجابة العمل الصالح، أو أن يكون الداعي مظلومًا، على ما جاء في الأثر عن النبي ﷺ:

أن دعاء المؤمن لا يخلو من إحدى ثلاث: إما تعجيل إجابة، وإمّا كفاية بلاء، وإما

تعويض أجر، أو كلامًا هذا معناه. فاعلموا وفقنا الله وإياكم أن من دفع الله تعالى عنه بلاء، أو عوّضه أجرًا فقد أجاب دعاءه ولم يُخيّبه، وللإجابة في اللغة معنى غير الإسعاف...

وأما عن تفاضل الكبائر، فإن الحسنات تتفاضل والكبائر تتفاضل، سُئل ﷺ عن أكبر الكبائر، فذكر عليه الصلاة والسلام أشياء منها: زنا الزاني بامرأة جاره، ومنها زنا الشيخ ومنها زنا الزاني بامرأة المجاهد.

ثم ختم الرسالة ببيان التوبة وأنواعها، وفي النهاية فإن التوبة إنما هي التبرؤ من الذنب، والخروج عنه بما أمكن...[(١)].

---

(١) باختصار من (رسالة التلخيص) للإمام ابن حزم من الصفحات ١٤١- ١٤٣- ١٤٥-١٤٦- ١٥٠- ١٥١- ١٥٢- ١٥٤- ١٥٥- ١٥٧- ١٦٠- ١٦٨- ١٧٠- ١٧٣- ١٨٥.

وهي منشورة ضمن رسائل أخرى بعنوان (الرد على ابن النغريلة اليهودي) تحقيق د. إحسان عباس ط. دار العروبة بالقاهرة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

المراجع

١- مقال (التكنولوجيا والتنمية من منظور حضاري بقلم د. حامد إبراهيم الموصلي ص١٥١ بمجلة- منبر الشرق- الصادرة عن المركز العربي الإسلامي للدراسات بالقاهرة ربيع أول ١٤١٤هـ/ سبتمبر ١٩٩٣م.

٢- أشبنجلر، د. عبد الرحمن بدوي ص١١٩ مكتبة النهضة بالقاهرة ١٩٤٥م.

٣- إظهار الإسلام، روجيه دوباسكويه ص١٥٢/ ١٥٣ دار الشروق بالقاهرة ١٩٩٤م

٤- نفسه ص, ١٣٤

٥- (عن الحرية أتحدث) د/ زكي نجيب محمود- دار الشروق ١٩٨٦م..

٦- من مقدمة كتاب (فكر المسلم المعاصر، ما الذي يشغله؟) ج١- مطابع الأهرام بالقاهرة ١٩٩٢م.

٧- تغريب العالم سيرج لاتوش، ترجمة خليل طلعت دار العالم الثالث بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث قسم الترجمة بالقاهرة ١٩٨٣م.

٨- الإسلام عام, ٢٠٠٠

٩- الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي، د/ حامد ربيع ص٣٢ دار الموقف العربي القاهرة ١٩٨٣م.

١٠- نقلاً عن الاعتصام للإمام الشاطبي ج١ ص٦٨ تحقيق الشيخ رشيد رضا- دار المعرفة ببيروت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١١- (آراء فلسفية في أزمة العصر) أدريين كوخ ص١٥ ترجمة محمود محمود مكتبة الأنجلو المصرية سبتمبر ١٩٦٣م.

١٢- ص٥٥ بكتاب (د. رشدي فكار في حوار متواصل حول: مشاكل العصر إعداد خميس البكري مكتبة وهبة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

١٣ إلى ٢٠) ثقافتنا في مواجهة العصر د/ زكريا نجيب محمود.)

٢١- عن الحرية أتحدث أيضاً ص٨٧ دار الشروق ١٩٨٦م.

٢٢- نقلاً عن كتاب (مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام) أنور الجندي ص١١٣ مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٢٣- الإسلام كبديل ص٢٠٦ ترجمة د. غريب محمد غريب، مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا شوال ١٤١٣هـ/ إبريل ١٩٩٣.

٢٤- (عن الحرية أتحدث) د. زكي نجيب محمود ص٣٢١ دار الشروق ١٩٨٦م.

٢٥- ص٦٠ من كتاب (الإسلام عام ٢٠٠٠) د. مراد هوفمان ترجمة عادل المعلم مكتبة الشروق نوفمبر ١٩٩٥م.

٢٦- الإسلام بين الشرق والغرب ص٢٩٦ (الرئيس علي عزت بيجوفيتش. ترجمة محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا ومجلة النور الكويتية رجب ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٢٧- الإسلام بين الشرق والغرب ص٥٦- ٩٤.

٢٨- الإسلام بين الشرق والغرب ص١٣٣.

٢٩- من كتاب (فقه الأولويات في الإسلام) د. مجدي الهلال ص١٠/ ١١ والرأي الأول للأستاذ عبد الوهاب خلاف والرأي الثاني للدكتور عبد الله دراز دار التوزيع والنشر الإسلامي بالقاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣٠- على سبيل المثال يُنظر كتاب (علّم نفسك الإسلام) للدكتور نبيل عبد السلام هارون ط١ دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٣١- ص٨٥ من كتاب (الإعلان الإسلامي العالمي لحقوق الإنسان ومقارنته بالإعلان العالمي لهيئة الأمم المتحدة) للأستاذ عبد الحفيظ نصار. دار الهدى للمطبوعات- ميامي- الإسكندرية سنة ١٩٩٧م.

٣٢- ص٧ من كتاب (فقه الأولويات في الإسلام) د. مجدي الهلالي دار التوزيع والنشر الإسلامي بالقاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣٣- ص ٤١-٤٢ من كتاب (أصول الدعوة) د. عبد الكريم زيدان مكتبة المنار الإسلامية- بغداد ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٣٤- (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) للنيسابوري تحقيق وتعليق د. حمزة النشرتي والشيخ عبد الحفيظ فرغلي ود. عبد الحميد مصطفى توزيع (الأهرام) بالقاهرة ١٩٩٣م.

٣٥- كتاب (الله ليس كذلك) زيجفرد هونكة ص٦١ ترجمة د. غريب محمد غريب دار الشروق مؤسسة بافاريا ومجلة النور الكويتية.

•••

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة (*)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد فإننا سنعرض فى هذا الكتاب لمقدمات عن مناهج بحث بعض العلوم الإسلامية، فتبدأ بإعطاء فكرة عن الملامح العامة للنظرية العلمية، توطئة لعرض المنهج العلمى عند المسلمين -سواء أصول الفقه أو المناهج العلمية التجريبية، مع بيان آثار ذلك فى المنجزات العلمية للحضارة الإسلامية التى أسهمت فى قيام حضارة أوروبا ونفذت إلى أعماقها.

وستكون مهمتنا توضيح بعض معالم المنهج العلمى لدى علماء المسلمين من أطباء وعلماء فلك وطبيعة وكيمياء وغيرهم من حيث التقيد بطريقة البحث العلمى الحديث من استقراء وقياس ومشاهدة وتجربة وغير ذلك، مع الاعتماد والاشارة إلى أهم المصادر التى تحتوى على مادة غنية فى هذا الموضوع الحيوى الذى نود أن يتجه إليه الباحثون والعلماء لبيانه واحيائه وتسليط الأضواء على دور العلماء المسلمين فى تاريخ العلم، لا سيما فى ميدان العلوم التجريبية، راجين أن يحتل تاريخ التقدم العلمى ومناهجه فى هذه العلوم مكانتها فى الرسالات العلمية والأبحاث؛ لكى تتصل حلقات الخلف بالسلف، وتعرف الأجيال الفتية مكانة أجدادها من العلماء الأفذاذ، وما قدموه من خدمات للإنسانية جمعاء. وغرضنا من هذه الدعوة سد الثغرة بين الكتابات المكثفة فى حقول الآداب والفنون والعقائد والفلسفة والتاريخ ومثيلها فى حقول التجارب العلمية، حتى تظهر حضارة الإسلام فى وضعها الصحيح، أى تقف على ساقين وتستند إلى أصلين: العقائد والقيم الأخلاقية والنظم، كذلك الحياة المدنية الراقية معًا جنبًا إلى جنب.

(*) وهى مقدمة الطبعة الأولى من كتابنا بعنوان مناهج البحث فى العلوم الإسلامية) ط مكتبة الزهراء بالقاهرة- عابدين ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

وهناك علوم خاصة بالمسلمين وحدهم، لم ينقلوا فيها عن أحد ممن سبقهم، كما أنهم تفردوا فيها لأنها تتصل بالعقيدة الإسلامية كالتوحيد والفقه وعلوم التفسير والحديث ومقارنة الأديان والتاريخ الإسلامي، فضلا عن علوم اللغة من نحو وصرف وأدب وبلاغة وعروض.

أما العلوم التي نقلوها عن اليونان ثم أضافوا إليها وأسهموا في تقدمها وكان لهم الفضل في توضيح مناهجها فهي أكثر من أن تحصى، ونريد فقط إعطاء فكرة عن الجناح العلمي في حضارتنا الإسلامية الذي أغفل عن عمد طوال عصور الاستعمار الغربي، ثم اتجه الباحثون والعلماء إلى هذا التراث العلمي البالغ الأهمية في التاريخ العلمي لإظهاره وابراز دوره في قيام الحضارة المعاصرة، ومن العجب أن هذه الجهود لم تقتصر على العلماء العرب والمسلمين بل شملت أيضا علماء بارزين من الفرنجة المنصفين[1].

وقد لايتسع المقام للافاضة في أفضال العلماء المسلمين في فروع العلوم المختلفة، ولكن يكفي إيضاح الدور المنهجي العلمي الذي أفاد البحوث العلمية وأدى إلى مظاهر التقدم العلمي التي يجني العالم ثمارها الآن بعد الإضافة إليها وتطويرها حيث تتعاقب جهود العلماء جيلا بعد جيل.

ذلك أنهم وجهوا البحوث إلى الوجهة الصحيحة من حيث إقامتها على التجارب والاختبارات واستقراء النظريات وما إلى ذلك من خطوات كانت تشكل في مجموعها تحولا رئيسيا في تاريخ العلم من مجرد النظر من أنماط (المنطق الصوري

---

(١) نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

د/ عبد الحليم منتصر في كتاب (تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه) د/ عبد الرحمن بدوي في كتاب (دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي) الأستاذ عباس العقاد في كتاب (أثر العرب في الحضارة الأوروبية)، الأستاذ حيدر بامات في كتاب (مجالي الإسلام)، قدري طوقان- تاريخ العلوم عند العرب، محمد اقبال: تجديد التفكير الديني، د/ علي سامي النشار: مناهج البحث لدى المسلمين، د/ فؤاد سزكين: التراث العلمي عند العرب، الأستاذ قدري طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، د/ الغمراوي: الإسلام في عصر العلم، د/ الفندي: (كتبه في الفلك في ضوء تفسير الآيات القرآنية)، الأستاذ مصطفى نظيف: ابن الهيثم (بحوثه وكشوفه البصرية)، د/ جلال موسى: المنهج العلمي عند العرب، د/ محمد سليمان داود: القياس الأصولي: دراسة مقارنة، روزنتال: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي جورج سارطون: تاريخ العلم، جوستاف لوبون: حضارة العرب.

الأرسططاليسى) إلى التجارب العلمية المؤدّية إلى التقدم الحقيقى للعلوم وفتح الطريق إلى الاكتشافات الجديدة.

إنهم باختصار - قد وضعوا (أسس البحث العلمى بالمعنى الحديث، وقد تميزوا بالملاحظة والرغبة فى التجربة والاختبار، ابتدعوا طرقا واخترعوا أجهزة وآلات إلخ)[1].

وحسبنا الإشارة إلى مقتطفات من دراسات العلماء المتخصصين فى هذا الميدان فى ثنايا الحديث عن دور المسلمين فى الانجازات العلمية.

والكتاب مقسم إلى ثلاثة أبواب، عرضنا فى الأول منها لملامح المنهج العلمى عند المسلمين وشرح أسس المناهج التى اتبعها العلماء فى دراساتهم وأبحاثهم، وإثبات أنها فى جوهرها كانت قائمة على المشاهدات والتجارب واستخدام اللغة الرياضية فى التعبير عنها فى شكل نظريات، وكان علماء أصول الفقه قد أرسوا هم أيضا قواعد التجريب بعد ازاحة المنطق الأرسطاليسى من طريقهم حيث ظهر إنه معوق للبحوث العلمية.

وقد أعطى الباب الثانى فكرة عن المنجزات العلمية فى فروع مختلفة من العلوم كالطب والفلك والرياضيات والفيزيقا، وهى ثمرة جهود العلماء المسلمين وبذلك يثبت أن الجانب (التكنولوجى) من الحضارة الإسلامية قد أسهم بالنصيب الأوفر فى الحضارة المعاصرة، ويكفيه فخرا أنه ظل قائما يقيد العالم حينذاك طيلة أربعة قرون أو أكثر، وعلى وجه التحديد، كان فى ذروته - كما يقول الدكتور سارطون فى كتابه (تاريخ العلم) - من القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر الميلادى هذا، إذا استبعدنا مدة الصعود إلى القمة ومدة الهبوط منها.

وبعد ذلك انتقلنا لبحث بعض مناهج العلوم الإنسانية الوثيقة الصلة بالدراسات الفلسفية، فخصصنا الباب الثالث لشرح قواعد منهج أصول الدين (علم الكلام) عند

(١) د/ عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ص٩٥، ط دار المعارف سنة ١٩٦٧م.

علماء السلف ثم التعريف بمنهج البحث فى علوم النفس والأخلاق والاجتماع لشرح معالم هذا المنهج وإبراز خصائصه التى تميزه عن غيره من المناهج.

والله تعالى نسأل أن يجعل مباحث هذا الكتاب من العلوم النافعة للطلاب خاصة[1]، وللمسلمين عامة، وأن يدخره لنا عنده بعد الممات، وأن يكفر عنا السيئات والزلات، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّ الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

مصطفى حلمى

الجيزة فى أول ربيع الثانى سنة ١٤٠٤هـ

٤ يناير سنة ١٩٨٤م

(١) وكان الكتاب فى أصله محاضرات ألقيت على طلاب كلية دار العلوم فى العام الجامعى ١٤٠٠/ ١٤٠١هـ- ١٩٨٠/ ١٩٨١م، بعد إضافات وتعديلات.

المبحث الثالث

في النفس

تمهيد:

- الخلفية العقائدية لعلم نفس إسلامي : بنو آدم والخلافة .
- الخلفية العقائدية لعلم النفس الغربي .
- دراسة النفس عند ابن الجوزي ٥٩٧هـ .

• القواعد المنهجية الأساسية في دراسة النفس عن ابن الجوزي .

• الحسد .

• الحقد .

• الغضب .

• دفع فضول الحزن .

• الحزن والغم والهم .

• دفع فضول الخوف والحذر من الموت .

• دفع الكسل .

• مرض العشق .

التعريف بعلم النفس الإسلامي:

ربما يدعو هذا العنوان إلى التساؤل عن مدى صحته ، وهل يشبه القول بعلم الهندسة الإسلامي مثلاً؟ إن العلم لا وطن له ، لأن الهندسة والجبر والطب والكيمياء وغيرها من العلوم المشابهة عبارة عن ملاحظة الظواهر واستخلاص قوانين (واحدة) تحكمها ما دامت قد بلغت المرحلة العلمية الصحيحة ، كذلك الحال في علم النفس -ما دام قد

أصبح علمًا يخضع كغيره من العلوم لقوانين ويعتمد على ملاحظة الظواهر - فلا ينبغى إذن أن يقال: هذا علم نفس إسلامى أو نصرانى، أو علم نفس يونانى أو هندى أو أمريكى.

هذا هو التساؤل - أو الاعتراض الذى طرحه للبحث الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى - رحمه الله تعالى، ثم أخذ فى تحليل وجهات النظر، فبين أن دخول علم النفس فى زمرة العلوم الطبيعية لم يتم إلا حديثًا جداً، ولا يزال بالرغم من التقدم الذى احرزه لم يبلغ بعد ما يمكن إن يقال إنه المرحلة العلمية النهائية والعلة فى ذلك أن النفس الإنسانية معقدة أشد التعقيد، ويصعب اخضاع كثير من ظواهرها للقياس والتجارب، وهما شرطا العلم الصحيح بمعنى الكلمة.

وفى ضوء دراسة منهج البحث بين العلوم الطبيعية وعلم النفس يتضح أن علم النفس الحديث ابتعد نهائيا عن القول بوجود (نفس) لا ستحالة بحثها علميا، بخلاف الظواهر الطبيعية التى نلاحظها من بعيد ونخضعها لتجاربنا.

وإذا صح دراسة هذه الظواهر من الخارج فإنه لا يصح عند دراسة النفس الأنسانية تطبيق نفس المنهج، وإلا عتبرنا الإنسان كأنه قطعة من الحجر أو النبات أو الحيوان، وهذا غير صحيح بطبيعة الحال، لأن الإنسان يجمع بين (سلوكه) الظاهر و(شعوره) الباطن الذى يستطيع أن يصوره ويحلله، وأن يميز بين دوافعه واتجاهاته وميوله وعوطفه وغير ذلك.

وقد ألغت كثير من مدارس علم النفس (الشعور) من مجال بحثها لأنه لايتفق مع المنهج العلمى.

ويقرر الدكتور الأهوانى الحقيقة المعروفة لنا جميعاً وهى إن هذا الإلغاء لا يعنى بحال ما أن الشعور لا وجود له، لأن الإنسان يحس بحريته واختيار ما يؤثره، وله سلطان على نفسه، ويستطيع السمّو بها إلى آفاق عليا، ومنها الآفاق الروحية الدينية.

لذلك لا تزال بعض المدارس فى علم النفس الحديث تفسح للمجال أمام:

أولاً: التأمل الذاتي، وهو منهج لا يتفق مع مناهج العلم الطبيعي.

ثانيًا: لدراسة ظواهر تقع في دائرة تختلف عن دائرة العلوم الطبيعية وهي الظواهر الدينية.

ويقرر الدكتور الأهواني في نهاية هذه الحيثيات أنه (ما دمنا قد أفسحنا المجال لدراسة الظواهر الدينية نفسانيا، فلا غرابة أن نقول بوجود علم نفس إسلامي، كما نقول بوجود علم نفس بوذي أو نصراني، لاختلاف خصائص كل دين من هذه الأديان)(١).

ونضيف إلى ما تقدم بعض القضايا التي ربما يستقل علماء المسلمين ببحثها في هذا المجال:

نبذة عن بعض قضايا علم النفس الإسلامي:

ولعل ما يرجح استقلال علم النفس الإسلامي أيضًا هو تفرده بعدة قضايا ينبغي أن توضع أمام الباحثين:

أولاً: التحول النفسي الذي أحدثته العقيدة كان مثيرًا للدهشة والعجب، فمازال الباحثون وفلاسفة التاريخ والحضارات ينظرون إلى هذا الحدث الفريد في تاريخ البشرية، وهو تحول العرب من حال البداوة والمذلة والهوان والفقر إلى دولة ذات حضارة عالمية غزت دولتين كبيرتين هما فارس والروم في عصرهما الزاهر، وأدت إلى احلال حضارتها الإسلامية محل الحضارات السائدة حيذاك بل اكتسحتها اكتساحا.

وهذه هي القضية التي ينبغي أن تكون مثار الاهتمام بحثا ودراسة، أي التحليل النفسي لهذه الظاهرة الفريدة، والمغزى الحقيقي للدراسة هو أنها قابلة للتكرار، لأن الصلة بينها وبين آثارها كالصلة بين المعلول بعلته -إنه التغير النفسي الوجداني، وتعديل النظرة إلى الحياة والكون والمصير، ومعرفة قدر الإنسان ودوره، واتجاهه بعباداته وأعماله- بل حركاته وسكناته لهذا الدين عملاً بقوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ**

---

(١) مقدمة كتاب عبد الكريم العثمان (الدراسات النفسية عند المسلمين، والغزالي بوجه خاص) مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

أسلمتُ لربِّ العالمين ﴾ [البقرة: ١٣١]، وبيّن القرآن الكريم للمسلم مكانته بين مخلوقات الله ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً ﴾ [الأسراء: ٧٠][1].

ونرى أولوية الدراسة لهذه الظاهرة النفسية باستقراء شخصيات الصحابة والتابعين ليسهل الاقتداء بهم، لا سيما أن الآية القرآنية تفيد إمكان إتباعهم بقوله تعالى: ﴿ والسّابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والّذين اتّبعوهم بإحسان ﴾ [التوب: ١٠٠]، والحديث (عليكم بستى ﷺ) وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى)، لقد صاغهم الإسلام صياغة إنسانية جديدة أساسها الصلة بالله تعالى وإبراز خصائص الإنسانية العليا[2].

ونستطيع أن نجمل هذا التحول النفسى الجذرى فى التغييرات الوجدانية العميقة الآتية:

١- عبادة الله تعالى وحده خوفا ورجاء ومحبة بدل الخضوع والذلة لمعبودات حقيرة كالأصنام والأحجار والأشجار، أو المخلوقات الكبيرة كالكواكب السيارة والشمس والقمر وما إلى ذلك من مخلوقات.

٢- عقيدة الإيمان بالآخرة وتفضيلها على الأجلة حيث تتحقق الحياة هناك فى الجنات الخالدة والنعيم المقيم، ولهذه العقيدة أثرها النفسى فى تحمل مشاق الحياة الدنيا ومتاعبها أيا كانت، بل تصبح أحيانًا محل ترحيب كما حدث لامرأة كانت تصرع.

ومن الأمثلة على ذلك الحديث المروى عن عطاء بن أبى رباح، قال ابن عباس -رضى الله عنهما- إلا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت بلى قال هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت أنى اصرع وإنى أتكشف فادع الله تعالى لى فقال إنْ شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك فقالت أصبر فقالت إنى اتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها» (متفق عليه).

---

(١) على القاضى: أضواء على التربية فى الإسلام ص ٢٨٩ ط دار الأنصار بالقاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م.

(٢) نفسه. (م٨ -العلوم الإسلامية).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة -رضى الله عنهما- عن النبي ﷺ «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة إلا كفر الله بها من خطاياه» (متفق عليه).

والأمثلة كثيرة جداً في كتب التاريخ والسنة تبين كيف تذوق هؤلاء الناس حلاوة الإيمان وجعلتهم يسعدون بالعقيدة الإسلامية وتتحول بها نفوسهم من حال إلى حال مغايرة تماما، لقد حولت الحياة الدنيوية إلى مجرد طريق مؤقت لا بد من اجتيازه، فكانوا يتفننون ويتنافسون في قضائها على أفضل وجه يرضى الله تعالى، ولم تقرأ قط عن أزمات نفسية أو أمراض عقلية أو مظاهر اكتئاب أو احباط وما إلى ذلك من أمراض هي سمة عصر الحضارة المادية الطاغية التي نعيش في ظلها حيث تأثر بها المسلمون انحرافا عن الطريقة الإسلامية في الحياة التي خطها الإسلام فحقق للمؤمنين الصادقين خلال القرون الطويلة نفوساً سليمة وقلوبا صافية فلم يتعرضوا للأمراض النفسية التي تجر وراءها الأمراض البدنية (ذلك لأن هذه الأمراض بنوعيها لا تظهر إلا مع ضعف الإيمان أو مع فقدانه حين تتسرّب الوساوس إلى النفس فتنشأ العقد وتكثر الحاجة إلى الأدوية المنشطة والمهدئة والمخدرة التي لا يعتدل بها ما اعوج من النفوس -وسيظل الصراع قائماً في زوايا النفس التي ضعف إيمانها، ومن هنا يقول الدكتور بريل (إن المرء المتدين لا يعاني قط مرضاً نفسيا)[1].

٣- تعدد النشاط الإنساني وأعماله التي تقربه إلى الله تعالى: لا الاقتصار على أعمال العبادات وحدها.

وآية البّر الجامعة توضح ذلك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

(١) على القاضي -أضواء على التربية في الإسلام ص٣٠٤ دار الأنصار ١٤٠٠هـ-١٩٧٩م.

ثانيًا: تفرد شخصية الرسول ﷺ باعتباره خاتم النبيين والقدوة الكاملة فى جوانب النشاط الإنسانى حيث عاش معه الصحابة حياة حقيقية واقعية قائمة على الاقتداء به والطاعة له ﷺ، وللمسلمين بعدهم بإتباع سنته القولية والعملية.

وكلما كان المسلم أقرب إلى إتباع سنته ﷺ كان إلى السعادة أقرب لأنه صلوات الله عليه يسلك طريقه فى الحياة وفقًا للوحى، وبعلم تام وحكمة شاملة للإنسان فى أحواله كلها ورسم الطريق السليم لاجتياز الحياة الدنيا بأفضل طريقة ممكنة على المستوى البشرى للناس.

ولتقريب معنى القدوة، وفهم دورها فى ضوء علم النفس، نضع أمام القارئ رأيًا لأحد علماء النفس المعاصرين حيث يرى أن (المثل الأعلى الصائب) هو من الناحية السيكولوجية، ذلك الذى يستطيع جلب التوافق للنفس، باجتذاب الانفالات الغريزية جميعًا، وهو الذى يستطيع باستثارة الإرادة إلى غرض مشترك أن يصب الفرد باعتباره وحدة سيكولوجية فى قالب كائن حى، وهو الذى يضمن تحقق الذات والسعادة، وذلك بإشباع السعى إلى الاكتمال، إن حيازة مثل أعلى أو غرض فى الحياة لهى إذن أهم الأمور الضرورية للإرادة القوية والخلق المتزن)[١].

وكان الأستاذ محمد أسد (ليوبولد فايس قبل إسلامه) سباقا ونفاذا إلى قلب الحقيقة فى فهم وتقريب الحكمة من إتباع السنة للأذهان، ولشرح فكرته يرى أنه ليس من المقبول أن يتساءل الجند عن أسباب وعلل الأوامر العسكرية بل عليهم تنفيذها فوراً بلا تردد وإلا أصبح أمر المعارك فوضى، فكذلك رسول الله ﷺ باعتباره أحسن قائد عرفته البشرية فى نواحى الحياة جميعًا الفردية والاجتماعية، النفسية والروحية بحيث يجب على المسلمين إتباعه والاقتداء به لأنهم أقروا بنبوته ﷺ بدلاً من ضياع الجهد والوقت التساؤل فى كل موقف عن السر والحكمة.

ولكن قد تصبح سعادتنا غامرة إذا ما وقفنا على بعض أو كل الحكم من سنته عليه الصلاة والسلام، وما أدق تعبيره عندما يصف السنة بأنها (الهيكل الحديدى) للإسلام.

---

(١) هادفيلد -علم النفس والأخلاق ص ١١٥ - ١١٦، ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم، ومراجعة د. عبد العزيز القوصى مكتبة مصر، سنة ١٩٥٣م.

وهنا يرى إن هناك أسبابا ثلاثة تؤكد ضرورة إقامة السنة وتبين أطرافا من حكمة إتباعها :

١- تمرين الإنسان المسلم بطريقة منظمة على أن يحيا دائمًا فى حال من الوعى الداخلى واليقظة الشديدة وضبط النفس ، وهذه مزية الاقتداء برسول الله ﷺ فى حركاته وسكناته ، إن هذا الانضباط السلوكى وفقا لسنته يؤدى إلى التخلص من الأعمال والعادات العفوية التي تعرقل النشاط الإنسانى عن التقدم ، يقول محمد أسد (إن الأعمال والعادات التى تقوم عفو الساعة ، تقوم فى طريق التقدم الروحى للإنسان كأنها حجارة عثرة فى طريق الجياد المتسابقة) .

٢- تحقيق النفع الاجتماعى للمسلمين ، لأنهم باتّباع السنة (أى المنهج النبوى فى الحياة) تصبح عاداتهم وطباعهم متماثلة مهما كانت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية متنافرة .

٣- ضمان الهداية إلى الحياة الإنسانية الكاملة الكفيلة بتحقيق السعادة والحياة الطيبة لأنه ﷺ يعمل بوحى الهى ، وقد أرسل رحمة للعالمين وليس هاديا من الهداة فحسب ، ولكنه الهادى إلى طريق مستقيم .

وعلى هذا تصبح شخصيته ﷺ متغلغلة إلى حد بعيد فى منهاج حياتنا اليومية نفسه ، ويكون نفوذه الروحى قد أصبح العامل الحقيقى الذى يقودنا طول الحياة[1] .

أما التفسير التاريخى وفقا لارتباط المسلمين بالسّنة ، فنرجو أن نعود لبحثه فى مناسبة لاحقة ، إذ يرى محمد أسد أن السنة كانت أيضًا مفتاح فهم النهضة الإسلامية منذ قرون ، فلماذا لا تكون مفتاحاً لفهم انحلالنا الحاضر وهو سؤال فى موضعه تماماً .

ثالثًا: بيّن الإسلام -كما سيرد تفصيلا فى الصفحات القادمة- مكانة الإنسان -أى خلافته- فى الدنيا وطريقه إلى الآخرة ، ووضحّ له الأهداف والغايات ، ومن هنا فليست الدنيا . . . هى المآل والغاية بل هى طريق يجتازه الإنسان إلى حياة الخلود ، وفى ضوء فهم هذه الحقيقة واتباعها نتوقف عند بعض الملاحظات منها :

(أ) لم تحدث أمراض نفسية بنفس الأنواع التى يعانى منها إنسان العصر الحاضر .

---

(١) محمد أسد -الإسلام على مفترق الطرق ص ١٠٤/ ١١٠ ، ط دار العلم للملايين- بيروت .

(ب) لا شك أن تعليل هذه الأمراض يتضح من الانحراف أو الخطأ فى تعريف الإنسان ورسم خطط حياته.

(جـ) تحقق السعادة النفسية ممكن باتباع المنهج الربانى حيث أن هذا المنهج قد أثمر أفضل حياة إنسانية سعيدة ممكنة على الأرض، ومازال يكفلها إذا التزمت به البشرية بعامة والمسلمون بخاصة.

إن كتاب الله تعالى محفوظ مقروء، وها هو نداؤه للإنسان عامة بتذكيره بفطرته، والميثاق الذى أخذه عليه لكى يحافظ على هذه الفطرة، ويذكر أيضًا بأنه مخلوق مربوب، وأنه فى حاجة دائما إلى ربه -عز وجل- حيث أنه سبحانه هو الذى أنعم عليه بالحياة ابتداء بالمولد -وهو الذى يمده بالنعم التى تجعل حياته سعيدة هانئة.

يقول الدكتور محمد عثمان نجاتى (إن الإيمان بالله تعالى، وإتباع منهجه الذى رسمه للإنسان فى القرآن، وبيّنه السنة هو السبيل الوحيد للتخلص من الهم والقلق، والطريق الوحيد الذى يؤدى إلى تحقيق أمن الإنسان وسعادته، وأن فقدان الإيمان بالله، وعدم اتباع منهجه فى الحياة يؤدى إلى الهم والقلق والشقاء)[1].

قال تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣] ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾[طه: ١٢٤].

مع العلم بأن النفس ذكرت فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات فى موضوعاتها الحديثة:

١- فقوة الدوافع الفطرية (الغريزية) تقابل النفس (الأمارة بالسوء):

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣].

٢- وقوة النفس الواعية تقابل النفس (الملهمة):

(١) دكتور محمد عثمان نجاتى -القرآن وعلم النفس ص ٢٤٩، ؟ دار الشروق ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

٣- وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة، وهى النفس التى يقع منها الحساب كما يقع عليها، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة:

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١، ٢].

٤- ثم ذكرت موصوفة بالأبصار والعلم بمواقع الأعذار:

﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

٥- وقوة الإيمان والثقة بالغيب تقابل النفس «المطمئنة»:(1) ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

ونعود إلى تأصيل نظرة علماء المسلمين إلى النفس الإنسانية، باستمداد معلوماتهم أولا عن خلق الإنسان ودوره ومصيره.

ونبدأ بشرح الخلفية العقائدية لعلم النفس الإسلامى،

(بنو آدم عليه السلام و«الخلافة»):

عندما تناول علماء المسلمين النفس البشرية تحليلا ودراسة، استمدوا معارفهم من أصل خلق آدم عليه السلام كما ورد فى القرآن الحكيم فى أكثر من سورة، وكما أوردتها الأحاديث النبوية أيضاً شرحًا وتفسيراً وبيانا.

وإتباعا للسياق الذى التزمه علماء المسلمين من المفسرين والفقهاء والمحدثين وغيرهم، فإننا سنبدأ من حيث بدءوا عادة، أى تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال تعالى ﴿ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف: ٦٦٩]، وقال -عز وجل- ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

(١) د. سيد عبد الحميد مرسى - النفس البشرية (سلسلة دراسات نفسية إسلامية) ص ٨١/ ٨٢، مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

وقد فسر الطبرى الخلافة بقوله «خليفة من يخلفنى فى الحكم بين خلقى وذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه فى طاعة الله، والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه، ومن غير آدم ومن قام مقامه فى عبادة الله»[١].

ويتضمن هذا التفسير ملاحظات ثلاثة:

الأولى: أن الخلافة فى الحكم بين خلق الله تعالى، أى تنفيذ شرعه منذ آدم عليه السلام ومن قام مقامه.

الثانية: يستحق الخلافة بهذه الصفة المؤمنون الطائعون الذين يتحرونّ العدل فى الحكم.

الثالثة: لا تطلق الخلافة على المفسدين فى الأرض، إذ أن آدم عليه السلام يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً، فأضيف الإفساد وسفك الدماء بغير حقها إلى ذرية خلفته دونه، وأخرج منه خليفته.

وشذ عن ذلك ابن عربى الصوفى الفلسفى حيث قال بأن الخليفة هو خليفة عن الله تعالى مثل نائب الله سبحانه وتعالى، وتفسير تعليم آدم الأسماء بالصفات التى جمع معانيها الإنسان وخلق آدم على صورته وأريد به هذا المعنى فأخذوا عن الفلاسفة أن الإنسان عالم صغير وضموا إليه إن الله تعالى هو العالم الكبير بناء على أصل فكرة وحدة الوجود[٢].

ويرفض علماء السنة هذا التفسير ويستعبدونه تماماً، لأن الله تعالى فى رأى فلاسفة وحدة الوجود هو عين المخلوقات، ويترتب على هذه الفلسفة إن الإنسان من بين الظاهر هو الخلافة الجامعة بين الأسماء والصفات، ويتفرع على هذا دعوى الربوبية

---

(١) الطبرى -جامع البيان عن تأويل آى القرآن جـ١ ص ٤٥٢ تحقيق محمود شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر ط دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

(٢) ابن مفلح -مصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص ٢٣ -الناشر على رحمى- دار مرجان للطباعة بالقاهرة ١٩٨٠م.

والإلهية المؤدية إلى الفرعونية، وهذا باطل ولا يجوز أن يكون الله تعالى خليفة بهذا المعنى، ويقول ابن مفلح (بل من اعتقد بالخلافة بهذا المعنى فهو مشرك بالله تعالى -ولهذا لما قالوا لأبي بكر الصديق رضى الله عنه: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ)[1].

والاعتراض على هذا التفسير الفلسفى ينصب على تأليه الإنسان وإعطائه نفس صفات الله تعالى، ومن ثم عدم التمييز بين المؤمنين الطائعين والعصاة الكافرين، إذ أن فلسفة وحدة الوجود -فضلا عن مخالفتها للحقيقة الشرعية والكونية- فإنها تؤدى إلى الاستخفاف بأوامر الدين وتهدم القيم الخلقية من الأساس.

وهناك أيضًا من العلماء من اعترض على تفسير الخلافة بأنها عن الله تعالى، إذ أن الخلافة إنما تكون للنيابة عن الغير، إما لغيبته أو لعجزه، وذلك لا يجوز على الله سبحانه وتعالى فإن الحى القيوم.

وقد فند ابن مفلح هذا الاعتراض، موضحًا أن الخلافة بالمعنى الصحيح إنما هى بالشرط المتقدم -أى الطاعة والحكم بالعدل، فهى ليست خلافة بسبب غيبة الغير أو عجزه لأن الاستخلاف قد يكون فى أحوال أخرى:

١- أن يستخلف المستخلف غيره امتحانا للمستخلف أو تهذيبا له.

٢- أو يستخلفه لقصور المستخلف عليه عن قبول التأثير من المستخلف -لالعجزه ومثال ذلك أن السلطان جعل الوزير بينه وبين رعيته، وكذلك جعل الله تعالى الرسل بين الملك الذى هو قبله تعالى وبين العباد لفضل قوة إعطائهم ليأخذوا

---

(١) ابن مفلح -مصائب الأنسان من مكائد الشيطان ص ٣٢.

ويرى الشيخ النجار أن الخلافة عن الله تعالى بالمعنى الصحيح لا تتعارض مع أنه سيكون للإنسان أيضًا سلطان عليها متصرفًا فى موادها ليجعلها ملائية لحاجاته (قصص الأنبياء -مقدمة الطبعة الثانية ص ١٦- العالمية للتوزيع).

ولعل تعريف الإنسان الجامع بين الروحى الأخلاقى، والعقلى بقدراته على البحث والاكتشاف والتصرف- هذا التعريف بقسميه هو الأساس لقيام حضارة إنسانية جامعة بين القيم والتقدم التكنولوجى، وفى ضوء ذلك يمكن تقويم تاريخ الحضارات.

منه الحكمة ويوصلوها إلى الناس، وبهذا الوجه قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام: ٩][(١)].

ويتبين من هذا الشرح والتفسير مدى الشروط والحدود التي وضعها أصحاب تفسير (الخلافة) بأنها عن الله تعالى، فهي مقيدة بقيدين:

الأول: بطاعته -عز وجل- وإقامة العدل بين الناس.

الثاني: أن الخلافة بهذا المضمون لون من ألوان الابتلاء والاختبار لبنى آدم ليتحقق مدى عبوديتهم الله تعالى، ومع الاعتقاد الجازم بأنه سبحانه وتعالى حى قيوم شهيد لا يموت ولا يغيب، فلا يجوز أن يكون أحد من بنى آدم خلفا له، فإنه لا يقوم مقامه -عز وجل- أحد، بل إنه سبحانه وتعالى يكون خليفة لغيره كما قال رسول الله ﷺ «اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل والحضر» رواه مسلم.

كما قال الرسول ﷺ فى حديث الدجال أن يخرج «وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مؤمن» رواه البخارى[(٢)]. والآن، نتحدث عن طبيعة النفس الانسانية فى التصور الإسلامى:

الأصل فى النفس: الفطرة والثبات:

والمقصود أنها خلقت تعرف ربها -عز وجل-، والمقصود بالثبات أنها لا تتغير تلقائيا تبعا لما يحدث فى محيطها الثقافى والاجتماعى والسياسى كما تطير الريشة فى مهب الريح -ولكن تتغير رغباتها وشهواتها وأهواؤها للأسباب التى سنعرض لها عند الحديث عن النفس عند ابن الجوزى (٥٩٧هـ).

وأساس القول بالفطرة مستمد من الكتاب والسنة[(٣)].

أما الكتاب فإن آية الميثاق المشهورة تفيد ذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ

(١) السابق ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) نفسه ص ٢٣.

(٣) ينظر كتاب الأستاذ محمد قطب -دراسات فى النفس الأنسانية فصل (الدين والفطرة من ٢١١ إلى ٢٤٤)، وهو -فيما نعلم- أول رائد للدراسات النفسية الأسلامية، ط دار القلم- بدون تاريخ.

من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (١٧٢) أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

وقوله -عز وجل- ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم آية: ٣٠].

وحديث الرسول ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جدعاء هل تحسون فيها من جدعاء» رواه البخاري.

والحديث عن الفطرة حديث ممتد، سيصل بنا في البحث إلى تأصيل العقيدة الإسلامية ومعرفة الله تعالى، وبالتالي معرفة سنن الله -عز وجل- في الطبيعة والعمران البشرى والاجتماع عند حديثنا عن (علم الاجتماع الإسلامي).

أما عوامل الوراثة والبيئة وخرافات العرف والتقاليد فهي طارئة على النفس من الخارج، لأنها جبلت في الأصل على معرفة ربها تعالى: (وقد تحجبها الغفلة والبيئة والتقليد أحياناً، ولكن جذور هذه المعرفة عميقة في النفس لا سبيل إلى إنكارها أو التخلص منها[1].

وفي ضوء هذه الآيات -يرى الأستاذ محمد شديد- إن دليل الفطرة إن الإنسان بطبعه يحس بالحاجة إلى القوة المعينة، وتظهر في نفسه هذه الفطرة سليمة نقية حين الحاجة إليها في المصائب والمحن، فإن المريض الذي برح به الألم، وراكب البحر الذي أشرف على الهلاك، والمظلوم الذي لا يجد ناصراً ولا معيناً، والأم التي يئست من شفاء وحيدها، حين تنقطع بهم أسباب الأرض يتوجهون بفطرتهم إلى الله -عز وجل- قال تعالى: ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا

(١) محمد شديد -منهج القرآن في التربية ص ٨١ - ٨٤، ط مكتبة الأداب بالجماميز بالقاهرة- بدون تاريخ.

أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢][(١)].

ولكن ما القول فى التغييرات الحادثة من حولنا؟ وهل غيرت معالم الحياة من طبيعة هذه الفطرة؟

إنه سؤال ملح يحتاج إلى إجابة للرد على الآخذين بآراء الفلسفة الماركسية بوجه خاص حيث يرون أن النفس تتغير بالعوامل الاقتصادية، أو الفلسفة المادية عموماً التى ترى أن (التراكم الكمى) فى الإنتاج ووسائل الرفاهية والازدياد فى استعمال الأدوات التكنولوجية العصرية من شأنه التأثير فى النفس ورقيها.

أما الدراسة المستوعبة لآيات الله تعالى، والجامعة بين عمق التفسير الإسلامى للنفس والمعرفة بآراء علماء النفس وخبراء الاجتماع، هذه الدراسة تقرر أن (النفس البشرية لا تتغير بتغيّر الأحوال والأوضاع ولا تتطور بالتطور والثقافى والاجتماعى والاقتصادى، ولا تتزلزل بالتوجيه الميكانيكى والمادى والصناعى)[(٢)].

إن هذه النتيجة نجد لها سندا من كتاب الله تعالى فى قوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقال أيضًا ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وواضح من هذه الآيات (إن النفس البشرية نقطة فاصلة فى النشأة الإنسانية وفى مجال تقويمها والارتفاع بها على سائر صنوف الاضطراب والانهيار والتدهور)[(٣)].

ويتضح من التحليل النفسى للقوى الإنسانية فى ضوء حقيقة فطرة النفس أن الأسس النفسية على نوعين:

---

(١) نفسه.

(٢) د. محمد تقى الأمينى بكتابه (بين الإنسان الطبيعى والإنسان الصناعى) ص٤١ ترجمة/ مقتدى حسن ياسين ومراجعة وتقديم د. عبد الحليم.

(٣) نفسه.

١- الروحية ويقال لها الإنسانية .

٢- المادية ويقال لها الحيوانية .

وتنبت الأولى -الإنسانية- من الفطرة، أى القوى الروحانية التى ركزها الله تعالى فى النفس البشرية منذ تكوينها، وينشأ عن هذه الأسس الروحية غرائز طيبّة تتمثل فى الخير والبر والرحمة والتعاون والاخاء والمودة والحب والصدق والعدل وغير ذلك من القيم العالية والفضائل الإنسانية والمثل العليا)[1] .

أما الغرائز التى تنشأ بالأسس المادية -الحيوانية- فتتمثّل فى صور الجوع والعطش والنشاط الجنسى وأنواع النشاط المادى والجسمى الأخرى التى يتفق فيها الإنسان مع الحيوان من حيث الدوافع والشهوات[2] .

بعد هذه المقدمة، سيتضح لنا فى الصفحات التالية جوهر الخلاف فى دراسة النفس بين المنهجين الإسلامى والغربى .

جوهر الخلاف فى دراسة (النفس) بين المنهجين: الإسلامى والغربى:

يظهر الاختلاف الجوهرى بين المنهجين إذا استطلعنا كلا النظرتين الإسلامية والغربية للإنسان:

إن نقطة البداية هى النظر فى أصل خلق الإنسان طبقا لما ورد فى الكتاب والسنة، هذه المعرفة الأولية بالإنسان لبيان (وظيفته ودوره فى الحياة وحدود طاقاته، ليست من صميم الدراسة النفسية فحسب، بل إنها كذلك هى الضمان الوحيد لعدم الوقوع فى العيوب المنهجية التى وقعت فيها أبحاث الغرب)[3] .

وتتلخص قصة أصل الخلق فى خلق آدم -عليه السلام- من تراب ونفخ الروح فيه وتعليمه الأسماء واسجاد الملائكة له ثم ابتلائه وزوجه بمنعهما من الأكل من الشجرة المحرمة، وبعدها اغواء الشيطان لهما واهباط الجميع إلى الأرض ابتلاءً واختباراً فى الحياة الدنيا وهى المعبر للآخرة .

---

(١) نفسه ص ٤٧ .

(٢) نفسه ص ٤٨ .

(٣) محمد قطب -دراسات فى النفس الإنسانية ص ٢٧، ط دار القلم بالقاهرة- بدون تاريخ .

من هنا كانت عناية علماء المسلمين بالشق العلمى المؤدى إلى علاج النفس من آفاتها وأمراضها، وأول هذه الأمراض الذنوب والمعاصى، لأن هذه الأمراض لو تركت لأصابت نفس الإنسان بالغموم والهموم والأحزان وضيق الصدر والحياة الضنك فى الدنيا، كما تفضى به إلى غضب الله تعالى وعذابه فى الآخرة، كما ستفصل ذلك عند حديثنا عن آفات النفس وعلاجها عند ابن الجوزى (٥٩٧هـ).

وقد لاحظنا أن جانبا كبيراً من كتب تراثنا المعنية بدراسة النفس، تهتم بإنقاذ النفس من عدوها الشيطان لتسلم من شره فتسعد فى الحياتين -ونكتفى بذكر حديثين فى هذا الصدد:

أحدهما -الحديث القدسى قال تعالى: **«إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانًا»** رواه مسلم.

ويتفرد المسلمون وحدهم بتصورهم لمضمون هذا الحديث إذ نتج عن الإيمان به الإلحاح على تغليب الهاتف الملكى المؤيد للإنسان، الآخذ بيده إلى طريق الخير، هذا من جانب، وإضعاف هاتف الشيطان من جانب آخر الذى يؤدى إلى التهلكة، ففى الحديث **«إن الشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاذ بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى، فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان»**. والحديث موقوف على ابن مسعود رضى الله عنه.

مجمل القول إن علماء المسلمين وضعوا منهج العلاج النفسى بمعرفتهم لقصة خلق آدم -عليه السلام- وعداء الشيطان له ولبنيه ومقام الخلافة التى ينبغى عليه الارتقاء إلى مقامها، وغير ذلك من جوانب هذه الحقيقة الكبرى التى مصدرها الوحى[1].

---

(١) وللقارئ نبذة عن بعض الكتب التى اهتمت بالأخذ بيد الإنسان للانتصار على عدوه: (مصائب الإنسان من مكائد الشيطان) لابن مفلح، (ذم الهوى) و(الطب الروحانى) لابن الجوزى، كتاب (الروح) لابن القيم و(تفسير المعوذتين) له أيضاً وفى العصر الحديث -(كتاب تنبيه الأذهان لحرب الشيطان) للدكتور محمد صلاح الدين خطاب. وكتاب (بين الإنسان الطبيعى والإنسان الصناعى) لمحمد تقى الأمينى.

ونعود إلى الخلفية العقائدية لتصور فلاسفة الغرب للإنسان حيث طغت المادية الحسية :

الخلفية العقائدية لعلم النفس الغربي:

أما النظرية فى فلسفة الغرب بوجه عام فهى مقلوبة رأسا على عقب إذ أن (أصل الإنســان الأعلى والتيار الرئيسى المحرك به «مادى»، أما الجوهر الروحى والأشواق العليا، فليسا بموجودين فى أصله، وإنما هى جبلته التى تكون النزعات الطبيعية والخلقية أولاً ثم تنشىء -بعد ذلك القوى الفكرية بواسطة النزعات الطبيعية والخلقية نفسها)(١).

وتظهر المفارقة الجوهرية بين تصور علماء المسلمين للنفس وتصور الغربيين فى شكلين بارزين أولهما عند (دارون) حيث اعتبر «الجبلة الحيوانية» فقط هى مصدر الأسس النفسية والنزعات الخلقية وسائر الخصائص الوجدانية والانسانية وهى أيضاً مصدر سائر الأفكار والحركات التى تقوم عليها الحياة.

والثانى عند (فرويد) حيث جاءت أفكاره لترسخ هذا المفهوم فأرجع المحركات الإنسانسة إلى الشعور واللاشعور ويعنى (بالشعور) الطاقات التى زود بها الإنســان من التفكر والتدبر والتصرفات العقلية وغيرها، وينبع من (اللاشعور) العواطف والتخيلات والأوهام كلها.

وقد توسّع فرويد فى تخليه للمساحة التى تحتلّها اللاشعور فى النفس الإنسانية وجلعها كالبحر الذى يموج بالشهوات الجنسية، فجعل الإنسان عبدا للحاجات المخزية الحيوانية من أول يومه، بل جعل نشاط الإنسان فى العلم والابداع والفلسفة والأخلاق وغير ذلك ليس نشاطا أصيلا له مكان مستقل وأساس فى النظرة الإنسانية، بل هو مجرد مجال للتنفيس عن الشهوات المكبوتة!!

ولاشك أن هذه النظرة تخالف حقيقة الإنسان الذى يتميز بالثنائية فى جبلته المخلوقة من جسد وروح كما بينا آنفا، والعيب الرئيسى فى آراء فرويد إنكاره أن فطرة الإنسان

---

(١) محمد تقى الأمينى -بين الإنسان الطبيعى والإنسان الصناعى ص ٦١.

أو ماهيته لها جوهر مستقل يمكن أن يكون له نشاط أرفع من العواطف الجنسية والشهوات الحيوانية[١].

وقس على ذلك الآراء المختلفة التى ترى أن الغرائز هى المادة الأولية فى بناء حياتنا وأشخاصنا، فالمدرسة الفرويدية للتحليل النفس كما قدمنا تصب كل اهتمامها على الغريزة الجنسية، بينما يصر البيولوجيون على تأكيد أهمية قانون (التنازع على البقاء) أو الكفاح للبقاء أو البقاء للاصلح وكأن (المحافظة على النفس) هو قانون الحياة الأوحد، ورأى (تروتر) أن غريزة القطيع هى وحدها التى تسيطر على مسلكنا وتؤثر فيه، وكان (أدلر) يذهب إلى أن جميع الأمراض العصبية تحدث نتيجة غريزة حب السيطرة. وحاولت مدرسة (يونج) التوفيق بين آراء فرويد وأدلر -أى الاقرار بوجود غريزتين هما: القوة والحب.

أما النقد الموجه إلى هذه المحاولات التى جهدت فى تفسير الحياة وتعليل انحرافاتها على ضوء هذه الغريزة أو تلك، هذا النقد يتلخص فى محاولة تفسير حقائق الحياة على ضوء غريزة واحدة من الغرائز، فإن إتباع (مدرسة فرويد) يفسرون كل شيء بالرغبات الجنسية، ويفسر أصحاب نظرية (المحافظة على النفس) عناية الأم مثلا بطفلها يتوقعها حاجتها لهذا الطفل فى سن شيخوختها، وهكذا فى باقى المذاهب، ومعنى ذلك من الناحية النظرية قلب كثير من الحقائق حتى تلائم التفسير[٢].

هذا، إلى جانب سيادة وجهة النظر المادية التى ترجع جميع الظواهر النفسية إلى العمليات الفسيولوجية.

يقول الدكتور محمد عثمان نجاتى (إن علماء النفس المحدثين، بتبنيهم مناهج البحث فى العلوم الطبيعية، قد حصروا أنفسهم فى دراسة الظواهر النفسية التى يمكن فقط ملاحظتها ودراستها دراسة موضوعية، وتجنبوا البحث فى كثير من الظواهر النفسية المهمة التى يصعب اخضاعها للملاحظة أو البحث التجريبى).

(١) السابق ص ٦١، ٦٢. (م٩ -العلوم الإسلامية).

(٢) ج. آ. هادفيلد -علم النفس والأخلاق ص ١٩، ٢٠- ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم ومراجعة د. عبد العزيز القوصى مكتبة مصر بالقاهرة ١٩٥٣.

ويستطرد شارحًا خطأ هذا المنهج القاصر، فيرى أنه يغفل الاختلاف الكبير في طبيعة تكوين الإنسان الذي يتميز عن الحيوان بالروح، فترتب على ذلك إغفال دراسة كثير من الظواهر السلوكية المهمة في الإنسان التي تتناول النواحي الدينية والروحية[1].

وقد سبق أن لاحظنا أن هذه الناحية الجوهرية في خلق الإنسان قد اهتم بها علماء المسلمين أيما اهتمام وأعطوها جانبًا كبيراً من عنايتهم، ذلك لأنهم عرفوا الإنسان واستمدوا معلوماتهم عنه من المصدر الوحيد الصحيح الذي أمدهم بحقيقته: القرآن الحكيم، إلى جانب السنة النبوية.

ولكي تتضح لنا معالم المنهج الإسلامي في دارسة النفس بطريقة أكثر عمقًا، اخترنا نموذجًا تطبيقيًا للبحث، يتمثل في دراسة ابن الجوزي (٥٩٧هـ) عن النفس الإنسانية.

وتنقسم دراستنا عنه إلى قواعد المنهج عنده أولاً ثم عرض آرائه في آفات النفس وأمراضها وكيفية علاجها.

أولاً: القواعد المنهجية الأساسية في دراسة النفس عند ابن الجوزي (٥٩٧هـ):

أولاً: العبودية لله -عز وجل- والخوف منه وردع النفس عن هواها، وزجر النفس الأبية عن مواقف الذل بالعبودية والمحبة لغير الله سبحانه وتعالى.

فإن من حفظ الله تعالى في صحته حفظه الله في مرضه، ومن راقب الله في خطراته حرسه عند حركات جوارحه، وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: **«احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**.

ويؤيد ذلك أيضًا موقف يونس عليه السلام إذ لما كانت له أعمال خير متقدمة نفعته في شدته فقال تعالى: **﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾** [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] بخلاف فرعون إذ لم يكن له عمل خير فلم يجد العون في وقت الشدة فقيل له: **﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾** [يونس: ٩١].

---

(١) د. محمد عثمان نجاتي -القرآن وعلم النفس ص ٢٠، ٣٨/ ٣٩ ط دار الشروق ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

ثانيًا: الاستناد إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لمعالجة آفات النفس وأمراضها وعيوبها، كمثل قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ آل عمران: ١٣٤] أو قوله سبحانه: ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

والارتباط المنهجي بين القرآن الكريم والوسائل المقترحة عند ابن الجوزي لعلاج أمراض النفس، هذا الارتباط يعبر عن استجابة العلماء المسلمين في مجال العلوم الإنسانية بعامة، وعلم النفس بخاصة، إلى إرشادات القرآن وخضوعهم لتعاليمه.

ولا تعجب أيضًا إذا علمنا أن الدراسات النفسية المعاصرة تثبت أن القرآن قد (سبق العلوم الطبية والنفسية الحديثة في الاهتمام بتوجيه الناس إلى التحكم في انفعالاتهم والسيطرة عليها لما في ذلك من فوائد صحية كثيرة لم تعرف معرفة علمية دقيقة إلا في العصر الحديث[1].

كذلك يقدم الأحاديث في كل باب من أبواب كتابه ليعالج الآفة النفسية المخصصة لهذا الباب، كعلاج الشح مثلاً، يأتي بالحديث: **«إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا»**.

ثالثًا: الاعتقاد بأن الأصل في الأمزجة الصحة، والعلل طارئة، إذ كل مولود يولد على الفطرة، ورياضة النفس وتقويمها لا تصلح إلا في نجيب، فإن السبع مثلا وأن ربي صغيرًا لا يترك الافتراس إذا كبر.

رابعًا: الوقاية خير من العلاج، فإذا كان أفلاطون الفيلسوف قد قسم النفس إلى ثلاثة قوة ناطقة وقوة شهوانية وقوة غضبية، فينبغي في رأي ابن الجوزي لمن شرفه الله تعالى بحب العلم أن يعتني بتكميل النفس الناطقة التي فضله الله تعالى بها على سائر الحيوانات وشارك بها الملائكة فيجعلها هي المسلطة على القوتين الأخريين لتكون منزلتها في البدن بمنزلة الراكب للفرس ينبغي أن يكون هو المسلط على الفرس لاستعلائه فيمضي بها أين يشاء ويعقها إذا شاء، فكذلك ينبغي أن تكون القوة الناطقة هي المستعلية على باقي القوى، وتستعملها كما تحب وتكفها حين تحب، ومن كان

(١) د. عثمان نجاتي -القرآن وعلم النفس ص١٠٣.

كذلك استحق أن يسمى إنسانًا حقيقة لأنه يستطيع أن يسوس نفسه ويخضعها لإرادته ولا يخضع هو لها. ومع مداومة ترويض نفسه بمخالفة الشهوانية وكسر الغضبية واتباع القوة الناطقة تحرر من عبودية الشهوة والغضب وأصبح متشبهًا بالملائكة.

خامسًا: آفة النفس: الهوى والشهوات: يعرفنا ابن الجوزى أولا بالهوى فيقول: (اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق فى الإنسان لضرورة بقائه)، فهو إذن ضرورى لاستخدامه فى احتياجات الإنسان من مطعم ومأكل وملبس وغير ذلك، فالهوى بهذا القدر مستجلب للإنسان ما يفيد - فالغضب مثلاً دافع عنه ما يؤذى - فلا يذم الهوى إذن بالاطلاق، وإنما يذم المفرط فيه، أى ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار.

ومما يلفت النظر أن مضمون فهم ابن الجوزى (للهوى) يشبه ما يعرف بعلم النفس الحديث بالانفعالات ودورها فى حياة الإنسان.

يقول الدكتور عثمان نجاتى (بالرغم من أن للانفعالات وظائف مهمة فى حياة الإنسان إذ أنها كما أشرنا إلى ذلك من قبل، تعينه على حفظ ذاته وبقائه، إلا أن الإسراف فيها يضر بصحة الإنسان البدنية والنفسية)، ثم يبين أثر الخوف الزائد فى اضطراب الشخصية، وكيف كشفت الدراسات الحديثة فى الطب النفسجسمى (السيكوسوماتى) أن اضطراب الناحية الانفعالية عند الإنسان من الأسباب المهمة فى نشوء كثير من أعراض الأمراض البدنية[(١)].

ويتضح لنا أيضًا من مقدمة كتاب (الطب الروحانى) سبق ابن الجوزى لمعرفة الصلة بين الأمراض النفسية والأمراض البدنية إذ يقول (لما جمعت كتابا فى (طب الأبدان) وسميته «لقط المنافع» آثرت أن أشفعه بكتاب فى (طب النفوس) أسميته «الطب الروحانى»).

ويقرر بعد ذلك نتيجة ما استخلصه من علومه وتجاربه (فإن طب الأبدان إصلاح الصور وطب النفوس إصلاح المعانى، وهى أشرف)[(٢)].

---

(١) د. عثمان نجاتى: السابق ص ١٠٣.

(٢) ابن الجوزى - الطب الروحانى ص ٥.

ولكنه بحكم مخالطته للناس ودراسته لأحوالهم وتحليله لدوافعهم النفسية يقرر أن أغلب الناس يوافقون الهوى، فإن حصلت مصلحة حصلت ضمناً وتبعاً، ويقول في الختام (فلما كان هذا هو الغالب ذكرت في هذا الباب ذم الهوى والشهوات مطلقا) ويروى عن ابن عباس أنه قال (ما ذكر الله -عز وجل- الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه. وقال الشعبي إنما سمي هوى، لأنه يهوى بصاحبه)[1].

وأفضل السبل لعلاج هوى النفس طاعة الله تعالى حيث لا ينال الإنسان الخير إلا بطاعته ولا يفوته خير إلا بمعصيته.

وإذا آثر الإنسان ربه استطاع أن يقاوم هوى النفس وبذلك ينال ما يريد، أي أن مخالفة الهوى لفعل ما يرضى الرب -عز وجل- يحقق للإنسان رغباته، والدليل على ذلك يستوحيه ابن الجوزي من حديث الثلاثة الذين دخلوا إلى إلى غار فانطبقت عليهم صخرة، فقال أحدهم (اللهم أنه كان لي أبوان فكنت أقف بالحليب على أبوي فأسقيهما قبل أولادي، فإن كنت فعلت ذلك لأجلك فأفرج عنا، فانفرج ثلث الصخرة. فقال الآخر اللهم أني استأجرت أجيراً فسخط أجره فاتجرت له فجاء يوما فقال: ألا تخاف الله فقلت انطلق إلى تلك البقر ورعاتها فخذها، فإن كنت فعلت ذلك لأجلك فافرج عنا، فانفرج ثلث الصخرة، فقال الآخر: إني علقت بنت عم لي، فلما دنوت منها قالت: اتق الله فقمت. فإن كنت إنما فعلت لأجلك فافرج عنا، فرفعت الصخرة وخرجوا[2].

سادساً: اتباع المنهج التجريبي في علاج عيوب النفس، وقد اقترح طرقاً عدة، منها ما يقترب من طرق منهج علم النفس الحديث:

١ - يرى ابن الجوزي أن يتخير الإنسان صديقاً من أصدقائه ويسأله أن يصارحه بما يجده فيه من عيوب.

٢ - أن يعمل فكره في عواقب خلاله -أي صفاته وأخلاقه- وثمراتها، فيرى عيب العيب وحسن الحسن.

---

(١) ابن الجوزي- ذم الهوى ص ١٢.

(٢) ابن الجوزي: لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ص ٤١ - تحقيق د. فؤاد عبد المنعم -مكتبة حميدو بالإسكندرية سنة ١٩٧٩م، وقد لخص ابن الجوزي الحديث المتفق عليه.

ويقترب في ذلك من طريقة العلاج الحديثة المسماة بطريقة (العلاج بالفهم والاستبصار)، حيث (يزداد فهم الإنسان لمشكلاته حين يقصها على صديق أو حين يحاول كتابتها بالألفاظ عندئذ تتضح المشكلة وتتبين ملامحها الغامضة)[١].

٣- البحث عما يقوله فيه جيرانه وأخوانه ومعلموه وعماذا يمدحونه أو يذمونه، وأيضاً التطلع إلى ما يقوله الأعداء إذ ينتفع الإنسان من أعدائه ما لا ينتفع به من أصدقائه.

وربما تفوق ابن الجوزي بهاتين الطريقتين على الطريقة الحديثة التي تتبع (العلاج بالارشاد)، لأن المعالج فيها يشجع المريض على أن يبحث بنفسه وينقب عن ماضيه من طفولته بنفسه[٢]، وقد رأينا عالمنا يبحث عن عيوبه لا عن طريق الأصدقاء فحسب بل الأعداء أيضاً، فيضمن بذلك إلا يفوته عيباً.

٤- أن يعرض أعماله على محك الشرع. وفي هذه العبارة اختصار وإجمال لما حث عليه الإسلام من التمسك بالأخلاق الفاضلة وحسن السلوك وفعل الخير، وما أكثر الآيات والأحاديث التي تبرز الأخلاق الفاضلة مثل (الوسطية والاعتدال، وحسن الخلق، والتواضع، والصدق، والأمانة والشكر، والحلم، والأناة والرفق، وللمحبة، والجود والكرم، وحفظ اللسان)[٣].

وقد يكفينا في هذا الموضع التنبيه إلى الآيات الكثيرة الواردة في (تزكية النفس)، منها الآية الجامعية في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، حيث يرى ابن تيمية أن الله تعالى امتّن على العباد بإرسال الرسول ﷺ بهذه الأمور الأربعة المذكورة في الآية أي تلاوة آياته عليهم وتزكيتهم وتعليمهم الكتاب والحكمة (وتزكيتهم هو جعل أنفسهم زكية بالعمل الصالح الناشيء عن الآيات التي سمعوها)[٤].

(١) علي القاضي - أضواء على التربية في الإسلام ص ٣٠٦.

(٢) نفسه ص ٣٠٧.

(٣) د. سيد عبد الحميد مرسي - النفس البشرية ص ١٠٨.

(٤) ابن تيمية - تفسير سورة النور ص ٧٩ - ط المنيرية تصحيح منير الدمشقي ١٣٥٨هـ.

٥- النظر فى (سير العاملين) ثم (يقيس أفعاله بأفعالهم) فيرى حينئذ أن آثار النقص عيب فيجتنبه، فضلاً عن فعل القبيح.

ولا شك أن المفهوم من تخصيصه (سير العاملين) بالنظر، أنهم محل استحسان لأنهم يعملون وفقًا لأحسن الغايات. ويحتمل أنه يقصد بذلك ما يعرف الآن فى علم النفس بـ(الشخصية السوية).

لقد حققت عقيدة الإسلام -وتحقق دائمًا- السعادة والراحة النفسية والطمأنينة، وتعصم الإنسان من الهم والألم والقلق وغيرها من دواعى الشقاء النفسى.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس ٥٨].

وفى هذه الآية أمر سبحانه عباده المؤمنين أن يفرحوا بفضله ورحمته (وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن، وهما اتباع الرسول ﷺ، وهذا من أعظم الرحمة التى يرحم الله بها من يشاء من عباده، فإن الأمن والعافية والسرور، ولذة القلب ونعيمه وبهجته وطمأنينته: مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة، والخوف، والهم والغم، والبلاء، والألم، والقلق: مع الضلال والحيرة)[1].

ثانيًا: ونسوق فيما بعد دراسة ابن الجوزى لبعض الانفعالات النفسية التى اعتبرها أمراضًا ووضع سبل علاجها، كالحسد والحقد والغضب والحزن الزائد فى الحياة قبل الموت وغيرها.

الحسد:

يعرف أحد علماء النفس المعاصرين الحسد بقوله الحسد انفعال يشعر فيه الإنسان أن شخصًا آخر يمتلك شيئًا ما يتمنى هو أن يكون لديه هذا الشىء بدلاً من أن يكون لهذا

(١) ابن غانم المقدسى (٩٢٠هـ- ١٠٠٤هـ) -مصايد الشيطان وذم الهوى ص ١٣٣- دراسة وتحقيق إبراهيم محمد الجمل ط مكتبة القرآن بالقاهرة ١٩٨٣م.



الشخص)(١). ثم بين ألوان الحسد الذى ذكرها القرآن الكريم، منها حسد بعض الناس لقارون، إذ قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ١٩]، وذكر حسد اليهود والمشركين للرسول ﷺ على ما خصه الله به من فضل النبوة وحسدهم للمؤمنين على ما خصهم الله به من فضل الإيمان والهداية، قال تعالى: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقد يحدث الحسد بين الأخوة كما حسد قابيل هابيل، وحسد أخوة يوسف عليه السلام.

وبعد بيان هذه الألوان من الحسد المؤدى إلى كراهية وعدوان وأذى فإن العلاج كما يضعه القرآن الكريم يتمثل فى الاستعاذة من شر الحاسدين بقوله سبحانه: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ٥].

وقد توسع ابن الجوزى فى شرح هذا المرض النفسى معرفا به وبآثاره ومحذراً منه، ومقترحًا طرق العلاج منه.

يعرف ابن الجوزى الحسد بأنه (تمنى زوال نعمة المحسود وإن لم يصل للحاسد مثلها) ويعلل الحسد بأنه يرجع إلى حب الميزة على الغير وكراهة المساواة وهذا الشعور لا يؤثم صاحبه، ولكن الذى يؤثمه هو تمنى زوال النعمة عن أخيه المسلم.

ولما كانت آثاره مؤلمة، فعلى الإنسان أن يتخلص منه. إن هذه الآثار تظهر فى أعراض مرضية كطول السهر والأرق وقلة الغذاء ورداءة اللون وفساد المزاج ودوام الحزن والكمد، بينما ترك الحسد يورث صاحبه سلامة القلب وطول العمر، إذ قيل لأعرابى عاش مائة وعشرين سنة ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت.

وهذه أكبر ميزة لترك الحسد يغرينا بها ابن الجوزى، ثم يضيف إلى ذلك محاولة إقناع الحاسدين بأن الحياة ومتعها الفانية لا تستحق لهذه الآلام النفسية الضارة، فيقول

(١) د. محمد عثمان نجاتى - القرآن وعلم النفس ص ٨٩، ٩١.

(واعلم أنه لا يقع الحسد إلا فى أمور الدنيا، فإنك لا ترى أحد يحسد قوام الليل ولا صوام النهار ولا العلماء على العلم، بل على الصيت والذكر).

أضف إلى ذلك أن التعمق فى التحليل النفسى لأصحاب الأموال والمناصب والمتع الدنيوية، هذا التحليل يثبت أنهم يستحقون الرثاء -لا الحسد[1].

ويحاول ابن الجوزى أن يقنعنا بهذه العبارة الجامعة، يقول فيها (إن الكثير المال شديد الخوف عليه، والكثير الجوارى شديد الحذر عليهن قوى الاهتمام بهن، أو لهن، والوالى خائف من العزل، ثم ليعلم أن النعم كثيرة الأكدار، ثم هى قليلة اللبث، والمصائب تردفها).

ويحلل نفسية أرباب المناصب وحرصهم عليها وخوفهم على زوالها بقوله: (فإن الناس يظنون في أرباب المناصب أنهم فى غاية اللذة، ولا يدرون أن الإنسان يسمو إلى أمر فإذا ناله برد عنده وصار عادة له، فهو يسمو إلى ما هو أعلى منه).

ويضع العلاج المكون من:

أولاً: السعى للوصول إلى مرتبة المحسود، فإن الرجل إذا حسد جاره على الغنى سافر وتاجر ليصير مثله، أو على العلم سهر وتعلم.

أما التصرف المذموم الكريه إلي النفس فهو اكتفاء بعض الناس بالبطالة ثم يذمون الواصل إلي المعالي!!

ثانيًا: التحذير الوارد علي لسان الرسول ﷺ، فقد قال: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، حالقة الدين، لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتي تحابوا، أفلا انبئكم بشيء إذا فعلتموه تحابيتم، افشوا السلام بينكم**».

والحديث الثاني وارد في الصحيحين ونصه قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله -عز وجل- القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه مالا فهو ينفقه في الحق آناء الليل والنهار**».

---

(١) ابن الجوزى -الطب الروحانى ص ١٨، ط مكتبة القدس بالقاهرة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م (عن نسخة الخزانة الظاهرية بدمشق).



ولكن المقصود بالحسد في هذا الحديث الغبطة -أي تمني مثل ما للإنسان من غير حب زواله عنه- وقد سماها الرسول ﷺ هاهنا حسداً تجوزا[١].

وهكذا كان ابن الجوزي متجاوبا مع تعاليم الإسلام في علاجه لآفات النفس البشرية من الحسد والحقد والكراهية إذ أن الإسلام ربى أبناءه على البعد عن هذه الأحاسيس النفسية التي تسبب التعاسة (وقد أثبت العلم الحديث أن لهذا كله تأثيراً كبيراً على جسم الإنسان وعلى نفسه، فهو يرفع ضغط الدم ويحدث جفافًا واضطرابات خطيرة في الغدد الصماء وعسراً دائمًا في الهضم والامتصاص والتمثيل الغذائي وأرقا وشرود)[٢].

ولنمض معًا على الصفحات القادمة لنستطلع رأيه في الحقد وعلاجه:

الحقد:

الحقد لغة: امساك العداوة في القلب، والتربص لفرصتها. والحقد أيضًا: الضغن[٣].

ولكن ابن الجوزي يعطي اللفظ تفسيره النفسي فيعرف الحقد بأنه (بقاء أثر القبيح من المحقود في نفسه).

وهذا هو الذي يبحث عن وسيلة لعلاجه، ويعلله بالعلاقة بين المؤثر والأثر، فكمًا أن العقل يقضي ببقاء أثر القبيح، يقضي ببقاء أثر الجميل.

ويبدأ ببيان أثر الجميل في النفس فيذكرنا بالقضية التي سجلها القرآن الكريم في سورة (التوبة) وهي قصة كعب بن مالك الذي تخلف عن رسول الله ﷺ، ثم نزلت توبته في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، قال كعب (فدخلت المسجد فإذا رسول ﷺ

---

(١) ابن الجوزي -الطب الروحاني ص ٢١.

(٢) علي القاضي -أضواء على التربية في الإسلام ص ٣٠٣ الأنصار بالقاهرة ١٤٠٠هـ- ١٩٧٩م.

(٣) ابن منظور: لسان العرب جـ ٢ ص ٩٣٨، ط دار المعارف.

جالس حوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره)، قال الراوى (فكان كعب لا ينساها لطلحة)[١] والحديث أخرجاه فى الصحيحين.

ومن هنا يتضح أن الجميل لا ينسى، فالقبيح كذلك.

ولكن الأفضل، بل العلاج وهو فى مصلحة الحاقد -الأجتهاد فى إزالة أثر القبيح من القلب.

ويقترح ابن الجوزى العلاج فى وسائل ثلاثة ويرتبها فى درجات ثلاثة من الأدنى إلى الأعلى:

الأولى: العفو والصفح:

ويجب هنا استثارة العواطف الإنسانية فى أعلى مراتبها، وتحريكها بالعقيدة الدينية لأن الذى يعفو يبتغى الثواب من الله تعالى، وأيضاً يجعله شاكراً الله تعالى لأنه جعله فى موضع العافى بدلاً من جعله فى موضع المخطئ فى حقه، ثم يرتفع بشعوره وأحاسيسه إلى مرتبة عليًا لأن من كمال العفو (حصول الرضا وذلك بمحو ما فى القلب)[٢].

أجل، محو ما فى القلب ليحقق السعادة فى الدنيا وينقذ نفسه من الأمراض، يقول الدكتور الجراح أرنست (إن معظم القرح المعوية لا ترجع إلى ما يأكله الناس، وإنما إلى ما تأكله قلوبهم ولابد لعلاج المريض من علاج قلبه وأحقاده أولا)[٣].

---

(١) ابن الجوزى: الطب الروحانى ص ٢١.

وللحديث أكثر من مغزى وقد بوبه النووى فى باب (التوبة) مستدلا به على فضيلة التوبة، كما استدل به أيضاً على فضيلة الصدق حيث قال كعب ضمن ما قاله فى هذا الحديث للرسول ﷺ (إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب، ترضى به عنى، ليوشكن الله يسخطك على، وإن حدثتك حديث صدق، تجد على فيه إنى لأرجو فيه عقبى الله -عز وجل..)

النووى: رياض الصالحين ص ٢٢، ٢٣- ط دار الشعب ١٣٨٩هـ- ١٩٧٠م.

(٢) الطب الروحانى: ص٢١.

(٣) على القاضى: أضواء على التربية فى الإسلام ص ٤١٠، دار الأنصار بالقاهرة ١٤٠٠هـ١٩٧٩م.

الثاني: وهذه الوسيلة أدق من السالفة وأعلاها درجة، وهى أن يرى الإنسان أن الذى سلط عليه لأذاه إنما هو بذنب منه، أو لتكفير خطأ أو لرفع درجة أو لاختباره فى صبره.

الثالث: وهى أرقى الوسائل وأعلاها درجة وهو أن يرى الأشياء من المقدر سبحانه وتعالى[(١)].

وليس معناه بطبيعة الحال الوقوع فى الجبرية، فإن ابن الجوزى أجل من ذلك وهو على علم بالتمييز بين الحالات التى يحتج بها بالقدر، إذ لا يحتج بالقدر على الذنوب والمعاصى ولا يقبل من المذنبين والعصاة الاحتجاج به، ولكن يحتج بالقدر فقط عند وقوع المصائب.

الغضب:

لا يذم الغضب فى أصله لدوره المهام فى الحث على دفع الأذى عن الإنسان والانتقام من المؤذى له، وإنما المذموم افراطه، فإنه حينئذ يزيل التماسك ويخرج عن الاعتدال فيحمل على تجاوز الصواب.

وتعريفه أنه (حرارة تنتشر عند وجود ما يغضب فيغلى عندها دم الإنسان طلبا للانتقام)[(٢)].

ويحذرنا ابن الجوزى من نتائج التصرفات وقت شدة الغضب لأن الإنسان عندئذ يفقد وعيه فيرتكب من الأفعال ما يظل نادما عليه طوال حياته، والحوادث التى شاهدها تدل على ذلك (فكم ممن غضب فقتل وجرح أو كسر عضو ولده ثم بقى الدهر نادما على ما فعل ولكم ضرب رجل رجلا فانكسرت أصابع اللاكم ولم يستضر الملكوم)[(٣)].

غير أن أشد الحالات التى عددها، هى حالة رجل غضب مرة فصاح فنفث الدم فى الحال وأدى به إلى الهلاك فمات.

(١) ابن الجوزى: الطب الروحانى ص ٢٢.
(٢) ابن الجوزى: الطب الروحانى ص ٢٢.
(٣) نفسه ص ٢٤.

ولم يكن العصر الذي عاش فيه ابن الجوزي يعرف التعليل العلمي لهذه الحال وأمثالها، إذ أنها لم تعرف ألا في ضوء الدراسات الجديدة.

يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي تحت عنوان (السيطرة على الأنفعالات):

(وقد بينت الدراسات الحديثة في الطب النفسجسمي (السيكوسوماتي) أن اضطراب الناحية الأنفعالية عند الإنسان من الأسباب المهمة في نشوء كثير من أعراض الأمراض البدنية)[1].

وفي تناول انفعال الغضب بصفة خاصة فإن إفراز هرمون الإدرينالين يؤدي إلى زيادة الطاقة في الجسم ويجعل الغاضب أكثر استعدادا وتهيؤا للاعتداء البدني على من يغضبه، ولذلك فإن التحكم في انفعال الغضب له فوائد صحية ونفسية واجتماعية.

ويقرر الدكتور نجاتي في دراسته المقارنة إن القرآن الكريم قد سبق العلوم الطبيعية والنفسية الحديثة في الاهتمام بتوجيه الناس إلى التحكم في انفعالاتهم والسيطرة عليها[2].

إذن لا يعيب ابن الجوزي -أو علماء المسلمين المهتمين بدراسة النفس بعامة- لا يعيبهم افتقاد هذه المعلومات التي لم تعرف إلا بعد دراسات وتجارب أجيال تلو الأجيال، ذلك لأنهم استغنوا بالقرآن ووصاياه وتوجيهاته وكذلك السنة.

والذي يستوقفنا في الأمثلة التي ضربها ابن الجوزي هو ملاحظاته للناس أثناء الغضب، وتسجيله للنتائج المترتبة على السلوك وقت انفعال الغضب، ثم تحذيره من مغبة التصرف وقت اشتعال ثورة الغضب في النفس.

ومن الطريف أنه أرجع سببه -في الغالب إلى الإحساس بالكبر، فإن الإنسان لا يغضب على من هو أعلى منه، وكفاه بهذا تحذيرا حتى يتوقف الإنسان قبل غضبه ليتأنى ويعرف منزلة المغضوب عليه، فإذا وجده دونه صفح وعفى، فيصل إلى المرتبة الخلقية التي مدحها القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

---

(١) د. نجاتي: القرآن وعلم النفس ص ١٠٣.

(٢) نفسه.



وفي اقتراحه للعلاج تراه يستند إلى أحاديث الرسول ﷺ في هذا الشأن منها ما رواه البخاري في صحيحه أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: أوصني، قال ﷺ: لا تغضب، فردّدها مراراً قال: لا تغضب [١]، ومن أحاديثه ﷺ «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» متفق عليه.

ولنعلم القيم الثمينة لمثل هذه الأحاديث النبوية في تحقيق الحياة النفسية السليمة، فعلينا بمعرفة الأمراض الناجمة عن انفعال الغضب إذ إنه يؤدي إلى (ارتفاع الإدرالين والتروكسين في الدم بنسبة كبيرة -وإذا استسلم الإنسان لدوافع الغضب واليأس أصبح فريسة سهلة لقرحة المعدة والسكر وتقلص القولون وأمراض الغدة الدرقية والذبحة)[٢].

اجتناب الحزن الزائد:

يبدأ ابن الجوزي في تحليله لهذا الشعور بالتفرقة بين الإحساس العادي بالحزن أي بالقدر الذي يقوده إلى تصويب أفعاله لأن العاقل لا يخلو من الحزن لأنه يتفكر في سالف ذنوبه فيحزن على تفريطه.

ويتضح من هذا الرأي الوجه التطبيقي لمنهجه الذي ينطوي على الربط بين العقيدة والسلوك في ضوء الشرع، وفي محيط الإيمان بالبعث والثواب والعقاب، وفي دائرة التصور الإسلامي عن الدنيا والآخرة.

لهذا فإنه يختار شخصيات عملاقة من الزهاد المتقين ليقدم لنا آراءهم ومشاعرهم[٣]، فيروي عن مالك بن دينار أنه قال: إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما أن البيت إذا لم يسكن خرب، وقوله أيضاً (بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك).

ولكنه مع إقراره بملازمة الحزن لقلوب المتقين إلا أنه يرى اتقاء الإفراط، لأن الحزن إنما يكون على الفائت، بينما الإستدراك ممكن والحزن وإن كان دينا فينبغي أن يقاومه برجاء الفضل والرحمة ليعتدل الحال.

---

(١) ابن الجوزي: الطب الروحاني ص ٢٤.

(٢) علي القاضي: أضواء على التربية في الإسلام ص ٣٠٤.

(٣) وله في ذلك كتاب (صفة الصفوة).

ولكن ابن الجوزى يحذر من الحزن لأن الدنيا وما فات منها، فذلك الخسران المبين، ويجب على العاقل دفع هذا الحزن عن نفسه، وأقوى علاجه (أن يعلم أنه لا يرد فائتا، وإنما يضم إلى المصيبة فتصير اثنتين، والمصيبة ينبغى أن تخفف عن القلب وتدفع، فإذا استعمل الحزن والجزع زادت ثقلا)[١].

وهناك فروق دقيقة بين الحزن والغم والهم:

الغم يكون للماضى والهم للمستقبل.

ويلحق الغم بالحزن، فالغم يكون للماضى والهم للمستقبل، فمن اغتم لماضى من ذنوبه نفعه غمه على تفريطه لأنه يثاب عليه، ومن اهتم بعمل خير نفعته همته.

وهذه الإنفعالات قد تعود بالفائدة على الإنسان إذا كان غمه وهمه لأعمال الخير النافعة له فى الآخرة.

وتكون نفس هذه الانفعالات ضارة على النفس إذا اغتم الإنسان لمفقود من الدنيا (فالمفقود لا يرجع والغم يؤذى، فكأنه أضاف إلى الأذى أذى كما قلنا فى الحزن)[٢].

وينشأ الغم فى رأى ابن الجوزى بسبب فقد المحبوب فمن كثرت محبوباته كثر غمه ومن قللها قل غمه، فالزهد إذن فى المتع الدنيوية نوع من الوقاية من انفعال الغم الأليم.

ولكن إذا اغتم إنسان لأنه لا يجد محبوبا فإن إحساسه بالغم لعدم المحبوب معشار عشر غم من فقد المحبوب لأن من لا ولد له يغتم ولكن لا كغم من أصيب بولده.

أضف إلى ذلك أنه ثبت بدراسة العواطف الإنسانية أنه كلما طال ألف المرء لما يحبه واستمتاعه به، تمكن من قلبه، فإذا فقده أحس من مر التألم فى لحظة لفقده بما يزيد على لذات دهره المتقدم.

وهذا التحليل البارع للنفس الذى وقف عليه ابن الجوزى، يضيف اليه عاملا أخر يزيدنا من العجب فى تغلغله إلى أعماق الأحاسيس، إذ يقول أيضًا (وهذا لأن المحبوب

(١، ٢) نفسه ص ٣١.

ملائم للنفس والصحة، فلا تجد النفس لذتها إلا عند وجودها وفقدها مناف لها، ولذلك تألم بالفقد ما لا تفرح بالموجود، لأنها ترى وجود المحبوب كالحق الواجب لها)[١].

فالأولى إذن منذ البداية تقليل الألفة، أي أن الوقاية خير من العلاج.

أما إذا اضطر إلى الازدياد، وفقد بعض محبوباته فالعلاج بوسيلتين:

أولهما: الإيمان بالقدر وأنه لابد مما قضى.

والثانية: أن يعلم أن الدنيا موضوعة على الكدر.

فالبناء إلى النقض، والجمع إلى التفرق فلا بقاء لشيء فيها بل لا بد أن يفنى ويزول، وينبغي على الإنسان إذن أن يهيء نفسه دائما لهذه الحقيقة الجوهرية، ولا يجب أن يطلب من الدنيا ما لم توضع عليه (ومن رام بقاء مالا يبقى كان كمن رام وجود مالا يوجد)، مستدلا بقول الشاعر:

طبعت على كدر وأنت تريدها   صفرا من الايذاء والأكدار

ثم يقترح ابن الجوزي أسلوبا ناجحا للعلاج في حالة فقد شيء من الأشياء، وهو أن يتصور ما نزل به مضاعفا، فيهون عليه حينئذ ما هو فيه، أو أن يترقب في العافية هجوم البلاء ويتوقعه فإذا هجم ما يكرهه لم تكن أثر صدمته النفسية كأثر خالي الذهن عن توقعها، وأخيراً يرى أن يفترض أسوأ الاحتمالات فإذا أصابه بعضها كان خيراً، مثل أن يتصور أن يؤخذ ماله كله، فإذا أخذ البعض عد الباقي غنيمة، أو يتصور أن يعمى فإذا رمد سهل الأمر.

وأخيراً، يضع ابن الجوزي المرض الأخير الذي يحدث الحزن والغم بسببه، وهو المرض الجسماني، وطبقًا للمعلومات الطبية المتوفرة في عصره يقول (وقد يقع الحزن والغم من غلبة السوداء، فيعالج بما يزيل السوداء بالمفرحات)[٢].

ويبدو أنه يعالج الغلو في الانفعالات جميعًا، إذ يلحق بالحزن الزائد الفرح الزائد

(١) نفسه ص ٣٢.
(٢) نفسه ص ٣٣.

أيضاً، ويعرضه تحت عنوان (دفع فضول الفرح)، لأنه إذا اشتد الفرح التهب الدم وذلك يضر على حد قوله، ويشير بطريقة العلاج وهى أنه ينبغى للإنسان إذا رأى أسباب الفرح أن يدرج نفسه إليه، ويضرب على ذلك مثلا بقصة يوسف -عليه السلام- عندما التقى بأخيه سأله (هل لك من أب) ولم يزل يلاطفه لئلا يفجأه بالسبب المفرح.

ويذهب ابن الجوزى إلى أن الفرح ينبغى أن يكون بمقدار ليعدل الحزن، فاما إذا أفرط فإنه دليل على الغفلة القوية إذ لا وجه للافراط وكيف السبيل إليه إذا ذكر العاقل مصيره وخاف مآله؟

إن هذا العالم المسلم لا ينفك يذكرنا بآيات القرآن الكريم فى كل موضع، ففى علاجه لشدة الفرح، يستند أولا إلى الآية فى قوله تعالى ﴿لا يُحبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، ويفسرها بقوله (يعنى الأشرين الذين خرجو بالفرح إلى البطر)، ثم يعضد رأية بحكمة الحسن البصرى (فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحًا)[١].

ويلفت نظرنا (وحدة الفكر) إذا صح التعبير، حيث يجمع بين علماء المسلمين وحكمائهم الاستدلال بآيات القرآن، والأحاديث النبوية، فقد سبق عكرمة الحسن البصرى، ولخص لنا حكمته فى كلمة جامعة، قال (ليس لأحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً)[٢] وذلك فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

ونعود إلى تشخيص ابن الجوزى لأمراض (الغم والهم) لنعرف كيف عالج مرض عصرنا الحاضر أيضاً:

إن التحليلات الآنفة توضح أن تعبير ابن الجوزى عن الأنفعالات النفسية الضارة (كالهم والغم)، ترادف ما نعبر عنه الآن بـ(القلق) وهو المرض النفسى

(١) نفسه ص ٣٨.

(٢) ابن كثير: تفسير ابن كثير جـ٨ص ٥٢ -ط دار الشعب تحقيق د. محمد إبراهيم البناء، محمد أحمد عاشور، عبد العزيز غنيم.

العضال الذي يفقد النفس طمأنينتها ويسلمها إلى مهاوى الاحساس بالتعاسة والشقاء، فيعصف بالفرد ويؤرقه ويحيل حياته إلى منغصات دائمة.

وفرق بين الخوف (والقلق) -أى بلغة ابن الجوزى فرق بين الإنفعال النافع بالقدر الضرورى اللازم للإنسان- وبين الإفراط المؤدى للضرر وللقارئ فكرة موجزة عن نفس الرأى بلغة علم النفس الآن:

فإن الخوف ظاهرة صحية من الناحية الدينية حتى لا تطغى أو ننسى أنفسنا، والخوف الوارد فى بعض الآيات القرآنية يذكرنا بالخوف من الله تعالى كقوله -عز وجل- ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [٤٠، ٤١].

والآيات فى هذا الباب كثيرة.

ولكن المقصود أن (شيئًا من الخوف) ضرورى، وهو يختلف تمامًا عن الصراع والقلق، يقول الدكتور سيد مرسى:

ويختلف الخوف عن القلق من ثلاث نواح:

الأولى: أن الخوف استجابة انفعالية لخطر خارجى محدد، أما القلق فيمكن أن نسميه خوف من المجهول.

الثانية: بالرغم من أن كلا من الخوف والقلق حالات توقعية أى أنها تشير إلى خطر محدق إلا أن مثيرات القلق تأتى من الداخل أى من الكائن نفسه وليس من خطر خارجى كما فى حالة الخوف.

الثالثة: أن الألم الذى يتوسط فى اكتساب القلق ناتج عن عملية عقاب اجتماعية يوقعها عادة الأبوان أو من يقوم مقامهما[1].

---

(١) د. سيد عبد الحميد مرسى: النفس البشرية ص١١٠، ١١١.

ويعجبنا تحليل ابن تيمية لعوامل الهم والقلق، واقتراحه لمنع هذا المرض النفسى، فهو يرى أن من يتبع هواه فى مثل طلب الرياسة والعلو وتعلقه بالصور الجميلة أو جمع للمال، يجد فى أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبر عنه وهو فى طلبه لما يهواه، إما حزينًا متألمًا قبل إدراكه، أو خائفا من زواله وفراقه.

وهناك صنف آخر من الناس، ذاق فعلا طعم الإيمان بالله، وهو بتوكله ودعائه ينال ما ينفعه من الدنيا أو يندفع عنه ما يضره، فإن حلاوة ذلك هى بحسب ما حصل له من المنفعة أو اندفاع عنه من المضرة. أى أنه ينتقل من حال إلى حال.

ويشيد ابن تيمية بالصنف الثالث من المؤمنين، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الإخلاص لله والعبادة له، وحلاوة ذكره، ومناجاته وفهم كتابه وأسلم وجهه لله وهو محسن، بحيث يكون عمله صالحا ويكون لوجه الله خالصا، فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما لا يوصف[١].

ولا نظن أن هناك اختلافا بين علماء المسلمين -بل عامتهم- على أن هذا الطراز الفذ من البشر هو بمثابة (الشخصية السوية) بلغة علم النفس الحديث فالاجماع منعقد على هذا، بينما ظهرت سبعة تعريفات[٢] للتعريف بالشخصية السوية بواسطة علماء النفس الحديث، وعند هذه النقطة نتوقف قليلا لنبرهن على الفارق الجوهرى بين تصور الإنسان فى حقلى علم النفس الإسلامى والغربى فضلا عن التأكيد بأن المصدر الوحيد للتعريف الصحيح بالإنسان هو القرآن.

ونعود لاستكمال الحديث عن الخوف عند الموت، فهو ما لا يندفع إلا بتحليل وتوجيهات أخرى ربما انفرد به ابن الجوزى، حيث يحلل أيضًا أسباب الخوف من الموت الذى لا بد منه لكل إنسان، فلنعرضه بشىء من الإيجاز:

(١) ابن تيمية: مجموعة الرسائل الكبرى ص١٦٣، ١٦٤ط صبيح ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م.

(٢) وهى أن يكون الشخص منفتحا ومتقبلا للخبرة، أو إذا كانت معتقداته عن نفسه وعن الآخرين دقيقة، أو عندما تتجه الشخصية اتجاها متجا، أو أن الشخصية السوية تتضح بعلاقة الشخص بذاته والصحة النفسية السليمة، أو التوحد مع الآخرين، أو الشخص المحقق لذاته أى يحقق القوى الكامنة الفطرية. (نظر ص١٠٩ من كتاب الدكتور سيد عبد الحميد مرسى: (النفس البشرية) ط مكتبة وهبة بالقاهرة -١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.



دفع فضول الخوف والحذر من الموت:

وفى هذا التحليل النفسى تظهر الصبغة الإسلامية واضحة فى موقفين الأول قبل الموت: للإيمان بأن الموت قنطرة إلى منزل إقامة -أى الإيمان بالبعث وفقًا للعقيدة الإسلامية وفى ضوء معرفة حقيقة كل من الدنيا والآخرة. لذلك ينبغى للإنسان أن يكثر من ذكر الموت ليعمل له لا لنفس تصوره وتمثله، فالغرض من التذكر هو الحث على العمل الصالح لا مجرد الخوف والحزن.

وإن خطر على القلب الحزن على فراق الدنيا، فعلاج ذلك أن يعلم أنها ليست بدار لذة وإنما لذتها راحة من مؤلم، فإن حزن العاقل على فراقها - لا لأنها بطبيعتها تستحق الحزن على فراقها، ولكن لفوت العمل الصالح كما كان يفعل السلف، لذلك قال معاذ بن جبل عند موته (اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر[١]).

الثانى: عند نزول الموت وهو موقف يكاد ينفرد فيه ابن الجوزى ضمن العلماء من حيث محاولته التحليل النفسى للإنسان فى هذه الساعة فهى تحتاج إلى معاناة صعبة لأن صورتها ألم محض وفراق المحبوبات، ثم ينضم إلى ذلك هول السكرات والخوف من المآل ويأتى أيضًا الشيطان ليضيف إلى هذه الأهوال هولا آخر، إذ يسخط العبد على ربه ويذكره بمفارقة الولد والأهل وربما حسّن إليه الظلم فى الوصية.

يقول ابن الجوزى (فتعين حينئذ الحاجة إلى معالجة إبليس ومعالجة النفس).

ونظرا لصعوبة هذا الموقف وخطورة آثاره، فإنه ينبغى أخذ الأهبة له أثناء الحياة بطاعة الله تعالى ومراقبته ولهذا ففى حديث ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة». ومن دعائه ﷺ «أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت» رواه أبو داود.

---

(١) ابن الجوزى: الطب الروحانى ص٣٥.

كذلك يستدل بقصة يونس عليه السلام إذ لما كانت له أعمال خير متقدمة -أنقذته من شدته فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]. وعلى الضد لم يكن لفرعون عمل خير لم يجد وقت الشدة ما ينفعه فقيل له ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١][1].

أما عند الموت فينبغي أن تشجع النفس وتذكرها بأنها ساعة ثم ترجو كمال الراحة كما قال النبي ﷺ في سكرات الموت «لا كرب على أبيك بعد اليوم» وأن يحسن الظن بربه عز وجل كما قال الرسول ﷺ: «لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»[2].

دفع الكسل:

يعلل ابن الجوزي سبب الكسل بحب الراحة وإيثار البطالة وصعوبة المشاق.

وعلاج الكسل في رأيه تحريك الهمة، ويثير الكسول بضرب الأمثلة ليقرب له فوائد النشاط والحركة والعمل وأثرها على النفس، فإن من رأى جاره قد سافر ثم عاد بالأرباح زادت حسرة أسفه على لذة كسله أضعافا، وكذلك إذا برع أحد الزميلين في العلم وتكاسل الآخر. والمقصود بهذين المثالين اثبات أن ألم فوات الفرص المتاحة للرفعة والعلو يربو على لذة الكسل، ويفوق الإحساس باللوم والأسف، فرب راحة أوجبت الشعور بالحسرة والندم.

ويستقرئ صاحبنا الأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة والعلماء لتأييد حب العمل والحض على الحركة والنشاط وذم الكسل والبطالة.

من ذلك أن الرسول ﷺ كان يكثر أن يقول «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل» وقوله ﷺ «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل

(١) نفسه ص٣٧ ويعبر في كتابه (لفتة الكبد..) بألفاظ أخرى فيقول: وأعلم يا بني أن يونس عليه السلام كانت له خميرة خير نجى بها من الشدة، وأن فرعونا لما لم تكن له خميرة خير لم يجد لكربه مخلصا، مع ذكره لنفس الآيتين ص٣٩، ٤٠.

(٢) نفسه ص٣٧ والحديث أخرجه مسلم.

لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»[١].

ويضيف إلى ذلك قول ابن عباس (تزوج التواني بالكسل فولد بينهم الفقر)، وقول ابن مسعود (انى لأبغض الرجل أراه فارغا ليس فى شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة) وقول مالك بن دينار (ما من أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة فإن صاحبها أفضت به إلى روح -أى راحة- وإن جزع رجع)[٢].

وأيضًا ينبغى على الإنسان تذكر أمرين: أولهما: معرفة الغرض من حياته الدنيوية، وأنه لم يخلق عبثا، وإنما هو فى الدنيا كالأجير أو كالتاجر.

الثانى: أن زمان العمل فى هذه الحياة بالمقارنة إلى مدة البقاء فى القبر كلحظة، وبالمقارنة بالبقاء السرمدى إما فى الجنة وإما فى النار ليس بشيء.

فلينظر اللبيب إذن إلى سير المجتهدين وليستنهض همته إذ لا يصح أمام العاقل أن يؤثر البطالة فى موسم الأرباح، فليتهز فرصة حياته التى ستمضى كاللمحة فى سبيل حياة سعيدة أبدية، وقد أصاب فرقد السبخى فى لومه الكسالى بقوله «إنكم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل، ألم تروا إلى الفاعل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه فإذا فرغ اغتسل ولبس ثوبين نقيين وأنتم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل»[٣].

وبمقدرة شيخنا البلاغية فى التعبير عن نسبية الزمن عند مقارنة مدته فى الحياة الدنيا بما يقابلها فى الآخرة يقول «ومن تفكر فى الدنيا قبل أن يوجد رأى مدة طويلة، فإذا تفكر فى يوم القيامة علم أنه خمسون ألف سنة، فإذا تفكر فى اللبث فى الجنة أو النار علم أنه لا نهاية له».

وفى موضع آخر من رسالته لابنه ينقل لنا حقيقة تصور سرعة انقضاء الزمن والحرص على اغتنام الساعات، فإن الأيام فى رأيه (تبسط ساعات، والساعات تبسط أنفاسا، ولكل نفس خزانة، فاحذر أن تذهب نفسا فى غير شيء فترى يوم القيامة خزانة فارغة فتندم).

---

(١) نفسه ص٣٩ والحديث الأول ورد فى الصحيحين والثانى رواه مسلم.

(٢) نفسه ص٣٩.　　(٣) نفسه ص٤٠.

وترى ذروة التشبيه البلاغى حينما يستدل على مراده بما دار بين رجل وعامر بن عبد قيس (توفى ٥٥هـ) حيث قال له الرجل: قف أكلمك؟ فقال عامر معبراً عن ضيق وقته وشغله بما يجدى وينفع. قال (امسك الشمس)[١]!!

ويستخدم ابن الجوزى كل هذه الأدلة لاستنهاض الهمم، ودفع الكسل، مبينا أن الهمة مولودة مع الإنسان وإنما تقصر بعض الهمم، فإذا حثت سارت[٢].

وقد وضع ابن الجوزى العقل بإزاء هوى النفس لعلاج شهواتها وأمراضها، فبالعقل يدرك الإنسان سرعة انقضاء الدنيا فيفضل الآجلة على العاجلة، وبالعقل يقاوم هوى النفس فى حب الدعة والكسل ويحثها على العمل والسعى، وبالعقل أيضًا يتنبه إلى السلوك الصحيح فيؤدى الفرائض ويلزم نفسه باجتناب المحارم لمعرفة حقيقة النهاية المحتومة.

وتصدر أفكار ابن الجوزى واقتراحاته فى علاج النفس ومحاربة شهواتها عن عقيدته الإسلامية التى توضح له حقيقة الحياة والموت والبعث، والعمل بمقتضى العقل الذى يميز الآدمى، والتذكر الدائم لحقيقة احصاء أقواله وحركاته.

ولنقرأ معًا عبارته الجامعة فى نصيحته لابنه، إذ يتبيّن منها حقيقة الصراع بين العقل وهوى النفس، قبل أن نمضى معه فى شرح أنواع العلاج:

يقول الإمام (اعلم يا بنى وفقك الله أنه لم يميز الآدمى بالعقل إلا ليعمل بمقتضاه، وأعمل فكرك، واخل بنفسك، تعلم بالدليل أنك مخلوق مكلف، وأن عليك فرائض أنت مطالب بها، وأن الملكين عليهما السلام يحصيان ألفاظك ونظراتك).

ويعقد المقارنة بين الحياة القصيرة والأخرى الخالدة فيبين أن (مقدار اللبث فى الدنيا قليل، والحبس فى القبور طويل -والعذاب على موافقة الهوى وبيل)، ثم يستخرج من أعماق النفس أنواع شعورها فى أحوالها المتعاقبة متسائلا (فأين لذة أمس؟ قد رحلت وأبقت ندما! وأين شهوة النفس؟ نكست رأسا وأزلت قدما). أين آثار الاستجابة

---

(١) ابن الجوزى: لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ص٢٧.

(٢) نفسه ص٢٢.

للشهوات -ومنها حبها للكسل- قد مضى كلمح البصر ويبقى الإحساس الأليم بالندم[1]!!

أما مخالفة هوى النفس، فبالرغم من المكابدة والمعاناة فى مخالفتها أول الأمر، فإن نتيجة ذلك الفوز المحقق الدائم، فينسى المخالف لهواه ما عاناه فى معاندتها (وما سعد من سعد إلا بخلاف هواه، ولا شقى من شقى إلا بإيثار دنياه، فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد، أين لذة هؤلاء وأين تعب أولئك؟ بقى الذكر الجميل للصالحين، والمقالة القبيحة فى العاصين).

ولا تجد أبلغ وأدق من تصويره النفسى لآثار كل هذا إلا قوله فى النهاية (فكأنه ما شبع من شبع ولا جاع من جاع -والكسل عن الفضائل بئس الرفيق، وحب الراحة يورث الندم ما يربو على كل لذة فاتيه لنفسك: واعلم أن أداء الفرائض واجتناب المحارم لازم، فمتى تعدى فالنار)[2].

إنه ينبه النفوس الغافلة فيوقظها بتذكيرها بعبوديتها لله تعالى التى من لوازمها تنفيذ أوامرها واجتناب نواهيها.

ويمكن أن نلحق بهذا الفرع من البحث النفسى عند ابن الجوزى تعرضه أيضًا لمن يسميهم بذوى الهمة الدنية حيث يقسمها إلى نوعين:

النوع الأول: همة دنية بطبيعتها فلا ينجح معها العلاج.

النوع الثانى: همة مكتسبة بصحبة الأدنياء، أو لغلبة الطبع والهوى فعلاجها ميسور ببتر أسباب المرض، فإن كان سببًا اجتماعيًا -أى بسبب الصحبة والاختلاط، فهنا ينبغى مقاطعة أهل الدناءة وصحبة أرباب الهمم العالية لما للصحبة والصداقة من تأثير، ثم التفكر بالعواقب والمقارنة بين مآل الدناءة ومصير أولى الجد والاجتهاد، مع العلم بأنه لا فرق بين البشر من حيث الأصل والآدمية، ولكن الفرق يظهر بسبب المقارنة بين حب البطالة والراحة وبين حب أصحاب العزم الذين يعملون بهمّة ونشاط.

---

(١) ابن الجوزى: لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ص٤٠.

(٢) نفسه ص١٩.

ويفهم لأعماق النفس الإنسانية في ضوء التجارب التي تمر بصنوف البشر، يستخلص ابن الجوزي هذه القاعدة الصائبة في التحليل النفسي لكل من الفريقين: أصحاب الهمة الدنيئة الذين يتعجلون الراحة فلا يلقوا في النهاية إلا الحسرات على فوت الفضائل والسقوط من أعين الناس والإهانة بهم وما ينجم عنه من شعور بالكرب والندم[(١)] -وأرباب التعب الذين بذلوا جهدهم ودأبوا وثابروا في العمل فأحسوا بالراحة في النهاية مع الشعور بالعزة بسبب تعظيم الخلق لهم وارتفاع قدرهم في الدنيا قبل الآخرة، فينسون عندئذ مرارة كل تعب لأن شعورهم بالنجاح في النهاية يطغى على كل أثر للتعب والجهد.

ولعل أبلغ تصوير لمثل هذه الحالة الحديث المروى بسنده إلى أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ويؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط، هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب. ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة ثم يقال له: يا ابن آدم: هل رأيت بؤسا قط؟ هل مرت بك شدة قط فيقول: لا والله يارب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

والحديث يشرح نفسه ويفسر مضمونه حيث يبين أن (التعب ينقضي وتبقى الراحة، والراحة تذهب وتبقى الحسرة، والمقام موسم، والفوات معترض، والاستلاب عاجل، وفي بعض هذا ازعاج للمتواني)[(٢)].

وما أبرع ابن الجوزي في احصائه للساعات التي نقضيها في الدنيا، فإذا فرضنا أن بقاء الإنسان في الدنيا ستين سنة مثلا (فإنه يمضي منها ثلاثون في النوم، ونحو من خمسة عشر في الصبا، فإذا أخلص ما للآخرة فيه من الرياء والغفلة وجد أقله، فبماذا يشترى الحياة الأبدية، وإنما الثمن هذه الساعات)[(٣)].

(١) الطب الروحاني ص٤٣.

(٢) نفسه ص ٤٣.

(٣) ابن الجوزي: لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ص٣٠.

مرض العشق:

وقد يدهش الباحث لأول وهلة إذا علم أن الموضوع الرئيسى لكتاب ابن الجوزى (ذم الهوى) عن شهوات الحس وإن كان يشتمل على ذم الهوى مطلقا، فقال فى المقدمة (شكا إلى بعض من آثرت شكواه إثارة همتى فى جمع هذا الكتاب، من بلاء ابتلى به، وهوى هوى فيه، وسألنى المبالغة فى وصف دواء دائه)[1] واحتل العشق عدة أبواب من الأبواب التى حواها الكتاب.

قد ندهش ونتساءل عن اهتمام هذا العالم الواعظ المحدث بهذه المشكلة؟ ولكن إذا حللنا طبيعة النفس الإنسانية، وبحثنا فى الأمراض النفسية الناجمة عنها، لاعترفنا لابن الجوزى بالواقعية فى معرفته لأحوال المجتمعات ولا ننسى أن الإسلام يعالج المشكلات بمنهج النظر إلى الإنسان أنه خطاء ولكن بوسعه دائما والرجوع إلى الله تعالى.

ومن هنا يذكرنا المؤلف بما يحرمه الإسلام وما يحله، ويستثير فى النفس خوفها من الله تعالى وخشيتها من عقابه والرجاء فى عفوه ومغفرته.

هذه هى القواعد الأساسية التى تميز منهج ابن الجوزى بخاصة وعلماء المسلمين بعامة، إذ أنهم يعالجون نفوسا مؤمنة فى الأصل تخشى الله وتتقه، ولكن انحرفت استثناء ولفترات مؤقتة، فإذا أسرعنا إليها بيد العون عادت إلى فطرتها الأصلية.

وينبغى أيضاً أن نذكر أن طبيعة العصر الذى عاش فيه ابن الجوزى تسيطر عليه القيم الإسلامية والفضائل الخلقية المانعة من أن يستشرى فيها مثل هذه الأمراض الفتاكة للمجتمعات، ومع هذا فإنه لم يتجاهل المشكلة، بل أقرها وأفصح فى صدر المقدمة عن سبب تأليف كتابه كما مر بنا آنفا.

ولكن، يعتبر منهج ابن الجوزى معالجًا أيضاً للمجتمع الإسلامى المعاصر ليدرأ عنه الفتن السارية كسريان النار فى الهشيم، ويسهم اسهاما فعالا فى حل هذه المشكلة النفسية:

يحدثنا الطبيب الانجليزى ترومان. ك. بريل مدير المستشفى النفسى بلندن بعد ملاحظاته عن عاطفة الحب التى تأخذ كثيرا من التفكير والوقت فى العصر الحديث، يحدثنا بقوله (لعل أغرب تجارة كسب منها التجار- الألوف من الملايين تجارة الحب

(١) ابن الجوزى: ذم الهوى -مقدمة المؤلف ص١.

وصناعة السينما ونحوها- لقد ساعدوا في افساد عواطف هذا الجيل من الشباب الذي ولد بعد الحرب وقالوا له: إن الحب جميل وساحر- وأصبحت كلمة الحب صورة خيالية لا يستطيع الإنسان أن يصل إليها فيعجز الإنسان عن ممارسة الحب وعن الرضا العاطفي وبذلك يختلف عن أفكاره لأن الواقع يصدمها)[١].

وقد طلب الدكتور بريل منع وسائل الدعاية من نشر هذه المفاهيم لخطورتها وحتى نحفظ نفوس البشر، ثم طلب أن يعرف للمجتمع الإنساني صاحب الثقافة الغربية حقائق الحياة جيدا وأن يقنع الإنسان بأن يتعامل مع الحب كعاطفة إنسانية لا كشيء مدمر فناك يطلب الولاء والتقديس[٢].

ونظن أن ابن الجوزي كان سابقا لعصره في مثل هذه الاقتراحات وما زال صالحا لمخاطبة أهل العصر من المسلمين[٣].

ونضيف إلى ذلك أن الوحدة المنهجية بين علماء المسلمين بالنظر إلى القرآن والخضوع لأوامره ونواهيه، هذه الوحدة أوجدت تشابهها في الآراء في علاج هذا المرض، فنجد ابن تيمية مثلا (متوفى ٨٢٨هـ) وقد جاء بعد ابن الجوزي -يحذر من النظر إلى غير ما أحله الله من النساء لأن النظر يورث المحبة، وهو ما يبتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص لله لأن العابد لله تعالى المخلص له عز وجل يجد من حلاوة الإيمان ولذته ما يملأ عليه نفسه، ولذلك فإن يوسف عليه السلام عصمه الله بإخلاصه لله، بينما كانت امرأة العزيز مشركة. ولهذا يقال: أن غض البصر عن الصورة التي ينهى عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر:

أحدها: حلاوة الإيمان ولذته.

الثانية: يورث نور القلب والفراسة.

---

(١) علي القاضي: أضواء على التربية في الإسلام ص٣١٢.

(٢) السابق ص٣١٢.

(٣) ينظر بعض أبواب كتاب (ذم الهوى) وعناوينها تغني عن مضمونها: (في حراسة القلب من التعرض بالشواغل والفتن)، (في الأمر بغض البصر)، (في تحريم الخلوة بأجنبية)، (في التحذير في فتنة النساء)، في التحذير من المعاصي وقبح أثرها)، (في ذكر الآفات التي تجري على العاشق من المرض والعشق والجنون وغير ذلك).. وغيرها.



الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته[١].

وفى علاج هذا المرض وغيره من أمراض النفس، يحذر شيخ الإسلام من اتباع أهل الشهوات لأنهم يزينونها ويدعون الناس إليها (ففى النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولا وعملا ما لا يعلمه إلا الله، وأهلها يدعون الناس إليها، ويقهرون من يعصيهم، ويزينونها لمن يطيعهم، فهم أعداء الرسل وأندادهم).

ولا عاصم من الوقوع فى هذه الأمراض النفسية إلا الاستمساك بحبل الله تعالى بعبادته ومحبته وطاعته والإلتجاء إليه، لأن النفس متحركة فإن سكنت فبإذن الله، وإلا فهى لا تزال متحركة، وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس، لا تزال تتحرك عليه.

ويستند ابن تيمية إلى أحاديث نبوية ذكر فيها أسم (القلب) بدلا من (النفس) ويبدو أنها يميل إلى استخدام اللفظين كمترادفين فيقول:

وفى الحديث المرفوع (القلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا) وفى الحديث الآخر (مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض تحركها الريح).

وفى صحيح البخارى عن سالم عن ابن عمر قال (كانت يمين رسول الله ﷺ: لا ومقلب القلوب» وفى صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمرو أنه سمع النبى ﷺ يقول: «اللهم مصرف القلوب أصرف قلوبنا إلى طاعتك»[٢].

لذلك فقد خط الإسلام الطريق الطبيعى للوقاية أولا بتحريم النظر إلى ما حرمه الله لأنه مقدمات لارتكاب المحرمات، ثم جعل الزواج ثانيًا كعلاقة مشروعة كفل لها السبل الميسرة. يقول الدكتور محمد عثمان نجاتى (إن الإسلام يعترف بالدافع الجنسى ولا ينكره، وهو بطبيعة الحال يعترف بالحب الجنسى المصاحب له لأنه انفعال فطرى فى طبيعة الإنسان لا ينكره الإسلام، ولا يقاومه ولا يكبته، ولكن الإسلام يدعو فقط إلى السيطرة على هذا الحب والتحكم فيه وذلك عن طريق اشباعه بالطريق المشروع، وهو الزواج)[٣].

---

(١) ابن تيمية: تفسير سورة النور ص١٠٨، ١١٣.

(٢) نفسه ص٢٩، ٣٠.

(٣) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس ص٧٩.

والآن : ماذا نأخذ وماذا ندع من علم النفس الحديث؟

للإجابة على هذا السؤال ينبغي علينا أخذ فكرة عن تطور علم النفس في العصر الحديث :

يقول أحد علماء النفس المعاصرين (وعلم النفس اليوم لديه من التحديات من عالمنا العصري ما لا يستطيع أن يهمله، على أن هدفه الأساسي اليوم كما كان دائما هو صوغ الآراء والمبادئ العلمية، والهدف الأول لعلم النفس هو فهم الطبيعة البشرية، وغايته الثانية هي خدمة الجماعة)[1].

ومن هذا النص نستنتج عدة أفكار :

١- التحديات أو الصعوبات التي تعرقل تقدم علم النفس.

٢- أن هدفه صوغ الآراء والمبادئ العلمية.

٣- أن هدفه فهم الطبيعة البشرية ثم خدمة الجماعة.

وفيما يتعلق بالتحديات فلعله يقصد بها ما يصرح به في موضع آخر من كتابه بأن علماء النفس مازالوا إلى حد كبير في مرحلة اختبار مناهج البحث التجريبي، وما استطاعوا بعد الادعاء البتة بأنهم عبروا عن مشكلات الشخصية الإنسانية بأية عبارة محددة واضحة منظمة[2].

ويتطلب هذا الرأي تناول تاريخ الصلة بين (النظرية) والتجربة في العصر الحديث بإيجاز، ففي بداية القرن العشرين زاد الاهتمام بالنظرية وكانت نظريات العلماء -كما يصفها الدكتور مصطفى سويف- أقرب إلى الأطر الفلسفية منها إلى النظريات العلمية بالمعنى الاصطلاحي، وكان وراءها عدد قليل من الحقائق أو المشاهدات المضبوطة لوقائع السلوك.

---

(١) أ. ل. زانجويل : مدخل إلى علم النفس الحديث ص ٣١٧، ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة محمد خيري حربي -سلسلة الألف كتاب (١٤١).

(٢) نفـ . . ٢٧٦.



وظهرت حركة رد فعل بعد ذلك ضد الاهتمام الشديد بالجدل النظرى وتبنى العلماء حينذاك ضرورة اجراء التجارب وتجميع المشاهدات وتحسين طرق ضبطها، وكان ذلك فى الفترة من العشرينات من هذا القرن حتى بداية الحرب العالمية الثانية.

ولكن منذ أواخر الثلاثينات عادت بعض الأصوات ترتفع من جديد للاهتمام بتعميق بعض المسائل النظرية فى العلم، وانتهت جهود العلماء بعد (تاريخ مفعم بالموجات المتلاحقة تعبيرا عن حركة علم يلهث وراء معرفة الحقيقة فى أعقد جانب من هذا الوجود)[1] انتهت إلى المرحلة التى تسود فيها الدعوة إلى تحقيق التوازن بين التجريب والنظر، وأصبحت (نسبة كبيرة جداً من البحوث التجريبية الحديثة تقوم لتحقيق فروض وتنبؤات مستمدة من عدد محدود جدا من النظريات الأساسية، أقام دعائمها علماء من أمثال كلارك هل وليون فستنجر فى أمريكا، وهانز إيزنك من انجلترا، الأول بتخصصه فى علم النفس العام، والثانى فى علم النفس الاجتماعى، والثالث بدراساته فى بناء الشخصية)[2].

وعلينا بعد ذلك بحث مدى النجاح فى تحقيق الهدف المشار إليه آنفًا -على لسان (زانجويل)- وهو فهم الطبيعة البشرية ثم خدمة الجماعة.

ولا يصح لنا أن نعرض لهذه القضية بغير الاستناد إلى علماء النفس المتخصصين هنا حيث تنهض وجهة نظر بواسطة أحد هؤلاء العلماء لتعلن العجز عن فهم الطبيعة البشرية:

يقول الدكتور نجاتى:

حصر علماء النفس أنفسهم فى دراسة الظواهر وقصروا دراساتهم على (السلوك) حتى نادى بعضهم بتغيير اسم (علم النفس) إلى (علم السلوك) ليتطابق مع موضوع دراسته، وسادت فى دراساتهم التفسير المادى الذى يرجع تفسير الظواهر النفسية بالعمليات الفسيولوجية، أى النظر للإنسان كالنظر للحيوان

---

(١) د. مصطفى سويف: علم النفس الحديث -معالمه ونماذج من دراساته ص٦٦- ٦٨، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٣م.

(٢) نفسه ص٦٩.

فأغفلوا طبيعة تكوين الإنسان (الذى يتميز عن الحيوان بالروح، وهو أمر يغفلونه إغفالاً يكاد يكون تاما)[١].

وهناك أيضا رأى ناقد يذهب إلى قصور علم النفس الحديث فى دراسة النواحى الروحية فى الإنسان. يقول أريك فروم -وهو محلل نفسى معاصر (إن اهتمام علم النفس الحديث ينصب فى أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمى مزعوم وذلك بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان المهمة. وهكذا أصبح علم النفس يفتقر إلى موضوعه الرئيسى وهو الروح، وكان معنيا بالميكانيزمات وتكوينات ردود الأفعال والغرائز دون أن يعنى بالظواهر الأساسية المميزة أشد التميز للإنسان: كالحب والعقل والشعور والقيم)[٢].

وفى ضوء مثل هذه الآراء التى يعبر بها علماء نفس متخصصون عن وجهات النظر النقدية لعلم النفس الحديث، تتضح النتائج المهمة التى وصل إليها علماء الإسلام، وما أحوجنا للاسترشاد بها لأنها عالجت (الإنسان على الحقيقة) أى نفسه وروحه، واستمدت التفسير الصحيح للإنسان من الكتاب والسنة. إن دراسة تراث علمائنا -كما يرى الدكتور عثمان نجاتى تصبح (عونا لنا فى تكوين نظرياتنا الخاصة عن الشخصية الإنسانية بحيث نجمع بين دقة البحث العلمى الأصيل، والحقائق التى وردت فى القرآن الكريم عن الإنسان، وهى حقائق يقينية لأنها صدرت عن الله تعالى خالق الإنسان)[٣] ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وهذا بعينه ما تنبه إليه علماؤنا من قبل فقد انطلق علماء الإسلام من فهمهم لحقيقة الصلة بين الإيمان بالله تعالى وطاعته هو ورسوله ﷺ والسعادة والطمأنية والعكس الصلة بين القلق والهم والغم والبلاء والقلق وبين الكفر والمعاصى، ويرى

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس ص٢٠.

(٢) أريك فروم: الدين والتحليل النفسى، ترجمة فؤاد كامل القاهرة مكتبة غريب ١٩٧٧م، ص١١ -نقلا عن د. عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس ص٢٠-٢١.

(٣) د. محمد عثمان نجاتى: السابق ص٢١.



أحدهم أن الله سبحانه وتعالى جمع لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وفي تفسيرها قال عمر رضي الله عنه (نعم العدلان، ونعمت العلاوة) وقال البغوي المفسر (فالعدلان: الصلاة والرحمة، والعلاوة: الهداية).

أما الذي استهوته الشياطين فيصبح في حيرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١].

إن المؤمن إذن قد اهتدى لطريق مقصده فسار آمنا مطمئنا بينما ضل الآخر الطريق فلم يدر أين يتوجه[١]؟

ولا نتجاوز الحق إذا كان تعليقنا على هذا الرأي بأنه يجمع بين فهم الطبيعة البشرية ورسم الطريق المؤدي إلى سعادتها، مع التحذير في الوقت نفسه من اجتياز الطريق المؤدي إلى تعاستها.

وهذا الرأي يعبر عن وحدة المصدر الذي يستمد منه علماء الإسلام معرفتهم بالإنسان، ولذلك لم نجد اختلافا كثيراً بينهم في مثل هذه الأصول الجامعة المستمدة من الكتاب والسنة، ثم عرفوا بعدها كيف يحللون آفات النفس البشرية ويقترحون علاجها. ذلك لأن القرآن يبني الإنسان من جميع نواحيه النفسية والعقلية والخلقية، فهو يخاطبه بكل ما يؤسس فيه عوامل الخير[٢].

ويتضح أيضا سبق علماء المسلمين في ميدان النفس، لأن المعرفة الأولية بالإنسان

---

(١) ابن غانم المقدسي: مصايد الشيطان وذم الهوى ص١٣٣، دراسة وتحقيق إبراهيم محمد الجمل - مكتبة القرآن بالقاهرة ١٩٨٣.

(٢) د. رؤوف شلبي (منهج القرآن في إثبات العقيدة الإسلامية)، ص٣٠ مكتبة الأزهر ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.

لازمة لبيان (وظيفته ودوره في الحياة وحدود طاقاته، ليست من صميم الدراسة النفسية فحسب، بل إنها كذلك هي الضمان الوحيد لعدم الوقوع في العيوب المنهجية التي وقعت فيها أبحاث الغرب)[1] وإذا كانت الدراسات النفسية الحديثة تسعى إلى تطبيق واستغلال نتائجها في ميادين التربية والاجتماع والصناعة واختبارات القدرات واختيار المهن إلخ . . وتحقيق نتائج أفضل في هذه المجالات، فإن الهدف الذي كان يسعى إليه علم النفس الإسلامي لا يقل أهمية، إذ أن الشخصية السوية المحققة للحياة الطيبة، والتي تعرف هدفها -هذه الغاية لا تقل أهمية عما وصلت إليه أبحاث علم النفس الحديث من نتائج. ونقول:

ولم لا يسير المنهجان جنبا لجنب بشرط المحافظة على ذاتية العقيدة الإسلامية في نظرتها للإنسان ودوره ومصيره -بل إن المنهج الإسلامي له صفة الأولوية لأنه سيحقق للإنسان الأمن النفسي وينقذه من أشباح القلق والانفعالات المهلة كالحسد والغضب والحقد وغيرها من أمراض نفسية ناجمة عن أسباب وعوامل يعمل الإسلام على اجتثاثها من جذورها ويعالجها أولاً بأول بأساليب واحدة وطرق متعاونة كما سبق البيان عند حديثنا عن ابن الجوزي.

ونود أن نضيف، أنه بالرغم من أن آراء ابن الجوزي قد أعلنها في القرن السادس الهجري، إلا أنها مازالت صالحة للعمل بها، لأنها مستمدة من القرآن والسنة، ومبنية على الفهم الصحيح للطبيعة البشرية، ومن هنا نرى عالما معاصرا يطالبنا بعد دراساته وأبحاثه التي دامت سنين طويلة -يطالبنا بتزكية نفوسنا وفقا لأوامر الله تعالى بالعبادات، واتخاذ القرآن مصدر أساسيًا لصقل أرواحنا وإيقاظ إدراكاتنا، وإجلاء بصائرنا كما فعل بالمسلمين الأوائل الذي كان للقرآن الفضل العظيم في نفوسهم.

وعند الإطلال على العصر يقول الدكتور عثمان نجاتي (وبالرغم من الجهود الكثيرة التي تبذلها المجتمعات الحديثة في ميادين التربية والتعليم لتوجيه النشء وتعليمهم

(١) محمد قطب: دراسات في النفس الإنسانية ص٢٧، دار القلم بالقاهرة -بدون تاريخ.



وإرشادهم لكى يكونوا مواطنين الصالحين، إلا أن هذه الجهود لم تثمر الثمرة المرجوة فى تكوين المواطنين الصالحين، فالجرائم والإنحرافات المنتشرة فى جميع المجتمعات لدليل واضح على فشل أساليب التربية الحديثة وعجزها عن تكون المواطنين الصالحين)[١].

ولكى تكمل حديثنا فى مناهج البحث لدى المسلمين، سنعرض فى الصفحات القادمة لمنهجهم فى دراسة الأخلاق:

●●●

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس ص ٢٣٧.

المبحث الرابع

الأخــــلاق

سنعرض للمنهج الأخلاقى الإسلامى وفقًا للترتيب الآتى:

- فكرة عامة عن مذاهب الأخلاق الغربية.
- أصول المنهج الأخلاقى لدى علماء المسلمين.
- حل المشكلة الأخلاقية عند الراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ).
- أولاً: كيف خلقنا؟

ما هية الإنســان.

- ثانيًا: لم خلقنا؟

ما تظهر به النفس.

الإنسان مختار.

العبادة ودورها فى السلوك الأخلاقى.

- ثالثًا: إلى أين المصير؟

السعادة الأبدية.

أن مدخل الدراسة للمنهج الأخلاقى لدى المسلمين يقتضى أولاً إلقاء نظرة مقارنة للمذاهب الأخلاقية حتى يمكنا تقويم الدور الذى قام به علماء الإسلام فى مجال الدراسات الأخلاقية:

فكرة عامة مذاهب الأخلاق الغربية،

لسنا نريد أن نقوم باستعراض تاريخى أو موضوعى للمذاهب الأخلاقية فإنها أوسع نطاقًا من دائرة هذا الكتاب، وسنقتصر على الإلمام بأبرز الأفكار المتصلة بالأخلاق

والقيم الخلقية، وهى رغم اختلافها -كما سنرى- فإنها تتفق فى تعبيراتها عن مواقف فلسفية انفصلت عن العقيدة الدينية والوحى الإلهى وذلك توطئة للاستدلال على المنهج الإسلامى لحل المشكلة الأخلاقية عند الراغب الأصفهانى (٥٠٢ هـ).

فإذا نظرنا إلى الأخلاقيات الغربية من الاتجاهين -الغائى والموضوعى- فإن منها مذاهب غائية تحكم على الفعل الخلقى بالاستناد إلى آثاره أو نتائجه وأشهرها مذهب اللذة عند أرستبس وأبيقور قديمًا أو مذهب المنفعة حديثًا (ويعتبره الدارسون التصحيح العقلى لمذهب اللذة).

وهناك أخلاق السعادة عند أرسطو وهى الخير الأقصى تقصد لذاتها وهى كافية بنفسها لاسعاد الحياة.

أما الرواقيون فرأوا انحصار السعادة فى (ضبط النفس) و(الاكتفاء بالذات) و(الحكمة) أى أنه تحرر من الانفعال والتخلص من الهوى.

ولكن أبرز معالم الاتجاه الموضوعى يظهر فى مذهب كانت صاحب فكرة (قانون الواجب) الذى يحكم على الفعل الخلقى فى ذاته -لا بالنظر إلى آثاره ونتائجه.

وتعد المدرسة الاجتماعية الأخلاقية فى العصر الحديث من أهم المدارس التى أسهمت بآراء روادها فى دراسة الأخلاق منذ (كونت) و(دوركايم) اللذان أرادا تطبيق منهج البحث فى العلوم التجريبية على دراسة الظواهر الاجتماعية من تاريخ واقتصاد وأخلاق ولغة وغير ذلك.

ويأتى فلاسفة الوضعية المنطقية فينكرون القضايا الأخلاقية لأن الفلسفة الأخلاقية فى رأيهم لا تنطوى على أى بحث فى الواقع، ويذهبون فى غلوهم الإنكارى إلى القول بأنها قضايا زائفة لا تعبر عن أى شىء قابل للتحقيق تجريبيا.

وفى ضوء هذا الإنكار يرون فى الأحكام الأخلاقية مجرد «توصيات» أو «رغبات» أو «عبارات تعجب».

أما أساطين الفلسفة الوجودية أمثال كيركجارد وجبرييل مارسيل وسارتر، فبدافع رفضهم اخضاع الفرد للحتمية الاجتماعية أو الموضوعية العلمية، وتقديسهم للحرية

باعتبارها مصدر الإلزام، أسقطوا جميع القيم من حسابهم، فكانت فلسفتهم فى الحقيقة ضربة قاصمة للقيم والفضائل الخلقية، وتجاوزت معاول هدمهم هذا الحد، وهوت بالحياة الإنسانية إلى مشاعر القلق والعبث والغربة والضياع والفراغ واليأس!!

فهل نحن إذن أمام فلسفة أخلاقية أم تدهور أخلاقى؟

فى رأى بارودى أن الأزمة المعنوية التى تكافح فيها المدنية الغربية منذ ثلاثة قرون إنما هى أزمة خلقية، معللا إياها بالانفصال الذى حدث بين الأخلاق والوحى الدينى ومن ثم فإن الحاجة أصبحت ماسة من جديد إلى سلطة ما، وإلى قاعدة خارجية وإلى مبادئ موضوعية[١].

وأمام هذا التردى فى المذاهب الأخلاقية هناك، هل يصعب علينا استقراء المغزى؟

إن الأزمة الحقيقية للفلسفة الغربية فى الأخلاق نابعة من تصورات الإنسان للقيم الخلقية، أو اللهث وراء البحث عن اللذة أو المنفعة، وخطأ تصوراته عن الهدف والمرمى من الحياة، وبحثه عن أهداف كالسراب، مع افتقاده النظرة الصحيحة للقيم الثابتة التى نستمدها نحن من عقيدتنا، ومن خبرة الأجيال تلو الأجيال.

إن الحياة وفقا للعقيدة الإسلامية مهما كانت زينتها فإنها زائلة لا تلبث أنت تتكشف عن زيف معدنها لأنها حتمًا إلى فناء، وتبقى آثار الأعمال الصالحة لتصاحبنا إلى حياة الخلد فى الجنة، وهى الهدف الصحيح النهائى الذى يستحق المكابدة والسعى والجهاد، فإن كل بلاء -دون النار- عافية، وكل نعيم -دون الجنة- حقير.

إن الطريق إذن طويل ويحتاج إلى صبر ومصابرة مع العمل المستمر، ومجابهة العقبات تلو العقبات، فمن حديث أنس عن النبى ﷺ أنه قال «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» رواه مسلم[٢].

وكل ما يقابله الإنسان فى الدنيا من صعاب ومشقات يهون إذا عرف زوالها

---

(١) د. بارودى: المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر ص ٣، ترجمة د. محمد غلاب ومراجعة د. إبراهيم بيومى مدكور -ط الأنجلو ١٩٥٨م.

(٢) وفى البخارى عن أبى هريرة، إلا أن لفظه (حجبت مكان حفت).

وانقضائها، قال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

جاء في تفسير ابن كثير:

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى: الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال لها ولا انقضاء، بل هى مستمرة أبد الآباد[١].

أصول المنهج الأخلاقى لدى علماء المسلمين:

وفى ضوء بحثنا للمشكلة الخلقية نجد أنها لم تطرح بواسطة علماء المسلمين بعامة بالطريقة التى طرحت بها على مسرح الفلسفة فى أوروبا سواء اليونانية قديمًا أو الغربية حديثًا.

ولإثبات ذلك لجأنا إلى طريقة المقارنة لأنها كفيلة بتوضيح سمات الفكر الأخلاقى الإسلامى ومن ثم يستطيع القارئ الفاحص التمييز بين الأصالة والتبعيه حيث نرى الحاجة الماسة إلى تعديل مناهج دراسة العلوم الإنسانية لتتوافق مع العقيدة الإسلامية وتصورها الصحيح، كما نود عرض اجتهادات علمائنا الكبار فى صياغة عصرية بحيث يفهمها الجيل الحاضر ويقدر قيمتها ويعرف مدى الإسهام الحقيقى الذى قام به مفكرو الإسلام فى تراث الإنسانية، فيصبح دافعًا له على مواصلة نفس المنهج الذى ساروا عليه فى الحياة العلمية والعملية.

وتنبع أخلاقيات الإسلام من أصلين: **أولهما** عقيدة التوحيد التى جدّدها الإسلام ونادى بها رسول الله ﷺ، بالإضافة إلى الشريعة التى أنزلها الله تعالى عليه، فهى الأساس الضرورى للحياة الإنسانية الطيّبة لأنها تضع للمجتمعات البشرية النظم الملائمة لحياة الفرد وحياة الجماعة وفقًا لكافة القيم الخلقية العليا.

والأصل الثانى: الإيمان باليوم الآخر كضرورة توجه سلوك الإنسان إذ يزوّده

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص ٣٠١ ط دار الشعب، وتحقيق د. محمد إبراهيم البنا، محمد عاشور، عبد العزيز غنيم.

باستعداد نفسي للتضحية بالمتاع الزائل وتحمل الصعوبات والمشاق لبلوغ جنة الله تعالى ورضوانه، ولا يملك ذلك الاستعداد إلا من كان يؤمن إيمانا عميقًا بأن كلا منا سيقف أمام الله تعالى يوم القيامة ليحاسبه عمّا عمل في حياته الدنيا فيكافؤه أو يعاقبه بحسب عمله.

وبخلاف هذه العقيدة وهذا الإيمان فإننا رأينا كيف تدهورت الأنظمة والقواعد الأخلاقية عندما قطعت صلتها بمصدر الوحي الإلهي، وتولت قيادتها أيدي البشر، وأصبح الاحتمال القائم -بل الماثل للأعيان- وقوع العالم في ما يشبه الفوضى المؤدية إلى فساد الفرد والجماعة، وهو ما يتحقق أمام أعيننا بين شعوب العالم المسمّى بالمتحضر إلا من رحم ربك، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ومهما يكن من أمر، فإن عناية أصحاب الاتجاهات الأخلاقية بوضع أسس صحيحة للاقرار بالقيم والمبادئ، وحرصهم جميعًا على رفع أصواتهم محذرين ومنذرين لمجتمعاتهم من التدهور الأخلاقي، هذا كله دليل ما بعده دليل على أن الإنسان ليس جسداً وغرائز وشهوات فحسب، ولكنه أفضل من ذلك وأسمى، وإن شقاءه الحقيقي ناجم عن عجزه عن المواءمة بين جسده وروحه، أي بين متطلبات الجسد واحتياجاته، وبين شوق الروح وتطلعها إلى الأسمى والأفضل.

لهذا يعد موقف علماء الإسلام في دائرة الإسلام استجابة لنداء القرآن بالنظر إلى الآفاق والأنفس، وفي ضوء هذا المنهج سيتضح لنا كيف كان الراغب الأصفهاني متوافقا مع الآيات القرآنية ومستخلصًا منها التصور الصحيح للإنسان أثناء دورته في الحياة الدنيا، مرورا بابتلاءاته المتوالية حتى ينتقل إلى الحياة الآخرة.

ومن النموذج الأخلاقي التطبيقي للراغب الأصفهاني سنعرف أن المشكلة الخلقية لم تطرح بواسطة علماء المسلمين بالطريقة التي طرحت بها على مسرح الفلسفة في أوروبا سواء اليونانية قديمًا أو الغربية حديثًا، فباستثناء أشهر الفلاسفة كابن مسكويه -ومن سار على منهجهم ممن تأثروا بالنزعة اليونانية، لم ينفصل البحث في (الأخلاق) و(القيم الخلقية) عن دراسة الإنسان في ظل شريعة الله تعالى وخضوع الإنسان لهذا التشريع في

العبادة، والسلوك والأخلاق والأعمال الصالحة جميعًا، ولعل أول المستويات (الخلقية) لدى المسلم ينبغي أن تتحقق في تحرى (الحلال) واجتناب (الحرام).

وقد عنى علماء المسلمين عند علاج المشكلة الأخلاقية بتفسير الكتاب الكريم وحرصوا على الاستضاءة بالسيرة النبوية لأن الإسلام جاء مخاطبًا الإنسان، حاثًا أياه على الارتقاء إلى المستوى الأخلاقي اللائق به ليتهيأ لخلافة الله تعالى في الأرض، فرتب النماذج الإنسانية قياسًا على طاعة الله ورسوله ﷺ، قال تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

لذلك فإننا نلحظ أن المنهج الذى اتبعه علماء المسلمين يتصل بالتصور الصحيح لحقيقة الإنسان ودورته في الحياة المبتدئة بخلق آدم -عليه السلام- ثم اهباطه إلى الأرض ابتلاء واختيارا، ومصاحبته مع شريعة الله تعالى التزامًا بأوامرها وتنفيذًا لأحكامها، وارتفاعًا بمستواه الإنسانى إلى العمل بمكارمها[1] حتى ينتقل من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة ويعود أدراجه إلى موطنه الأصلى. إذا اجتاز الابتلاء الدنيوى بنجاح- أى إلى الجنة.

وينبغى علينا الاحتراز من التعبيرات التى تردد فى كتب الأخلاق عند الحديث عن (التخلق بأخلاق الله تعالى) حيث تلتبس على الكثيرين، والصحيح أن الحديث المروى عن الرسول ﷺ نصه (للّه تسعة وتسعون اسمًا -مائة إلا واحدا- من أحصاها دخل الجنة، وهو وتريحب الوتر)، وفى رواية (من تخلق بصفة دخل الجنة) رواه البخارى من حديث أبى هريرة. وإزاء ما نلاحظه عند الأصفهانى وغيره عند استخدامهم للدعوة

(١) يميز الأصفهانى بين مكارم الشريعة والعبادات، فإن العبادات فرائض معلومة ومحددة بينما المكارم درجة أعلى من العبادات. ولا يستحق الإنسان مقام (الخلافة) ألا بتحرى مكارم الشريعة لأن الخلافة هى (الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية فى تحرى الأفعال الإلهية)، الراغب الاصفهانى: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٩ ط مكتبة الكليات الأزهرية، مراجعة وتقديم طه عبد الرؤوف سعد ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

إلى (التخلق بأخلاق الله) فإننا نرى أن أفضل تفسير لهذه الدعوة أن (الصفات فى حق الله تعالى كمال مطلق لا يحيط به بشر، وهى حين تنسب إلى الإنسان نقص يتدرج نحو الكمال بقدر ما يطلبه البشر)[1].

ونعود إلى المقارنة بين الإسلام كمصدر للأخلاق عند علماء المسلمين وبين الدين والأخلاق فى أوروبا، إذ يستطيع الباحث الملم بتاريخ أوروبا فى العصر الحديث تعليل بزوغ عصر النهضة على النقيض من أصول قيام الحضارة الإسلامية، فقد كانت الأولى أى الحضارة الأوروبية حركة رد فعل لكل ما هو دينى، حيث انسلخت العلوم والآداب والنظم الاجتماعية عن الدين، وطرحت المفاهيم الدينية جانبا وحلت محلها مفاهيم بشرية فى كافة العلوم والنظم، ومن هنا كانت الحضارة الأوروبية وفلسفتها ونظمها منسجمة من حيث الأصول المستمدة منها، وانحسر الدين داخل الكنائس يعالج شئون الروح، وعندما عانى أهل أوروبا فى العصر الحاضر من الاغراق فى المادية وأعجزتهم المشكلات الدنيوية بدأ البحث فى الأديان واللجوء إلى بيوت العبادة[2].

أما الإسلام باعتباره الحلقة الأخيرة الكاملة لدين الله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فإنه بهذه الصفة جاء لينظم -وبصفة كاملة ونهائية- مسلك الإنسان فى الحياة الدنيا المتجه إلى الآخرة بالضرورة، فكان الانسجام فى الحياة النفسية لدى المسلمين، ولهذا لا نعثر فى صفحات التاريخ على مشكلات وأزمات نفسية وعصبية عانى منها المسلمون بالصورة التى يضج منها الغرب الآن بالشكوى ذلك لأن نظم الإسلام فى عباداته وشرائعه ومبادئه قد خطت أحسن الطرق للإنسان باعتبارين:

---

(١) محمد شديد: قيم الحياة فى القرآن ص ٦٩ ط دار الشعب ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٢) مثال ذلك ما ذكرته وكالة الأنباء الفرنسية فى تقرير لها يوم ٨/ ١/ ١٩٨٤ من موسكو أن الكنائس الأرثوذكسية فى العاصمة السوفيتية شهدت ازدحاماً شديداً لحضور قداس عيد الميلاد الذى احتفل به ليلة ٦ و ٧ يناير وهو ما فسره المراقبون بأنه دليل على استمرار وتجديد الشعور الدينى هناك رغم ازدياد الدعاية للالحاد وضغوط الحكومة على السلطات الدينية فى ... (جريدة الأهرام ص ٤ يوم ٩/ ١/ ١٩٨٤).

الأول: أن طبيعة الإنسان تجمع بين الجسد والروح.

الثاني: الحياة الإنسانية ممتدة من الدنيا إلى الآخرة.

إن الأمراض النفسية المعاصرة إذن وافدة ضمن ما وفد من الغرب -أى مع أسالي ونظمه فى المذاهب والفلسفة والحياة الاجتماعية والسياسية.

والآن، سنعرّف بالراغب الأصفانى ونشرح آراءه فى كيفية حل المشكلات الأخلاقية:

عالجنا فى مقال سابق[1] بعض رؤوس الموضوعات المتصلة بالأخلاق عند الراغب الأصفانى، حيث أثبت حرية الإرادة الإنسانية وإمكان الارتقاء بالإنسان إلى مقام (الخلافة) عن طريق العمل بمكارم الشريعة، وهى مرتبة أعلى من الشريعة ذاتها.

وسنحاول الآن عرض أفكار مقالنا السابق مع شرح منهجه فى ميدان الأخلاق، وكيف أخذ بيد الإنسان لمعاونته فى اجتياز طريق الحياة الملئ بالمخاطر، إذ بعد أرسى قواعد المنهج وحلل المشكلة الأخلاقية، قدم لها بتحليل مسهب للإنسان ومكانته بين المخلوقات والغرض الذى من أجله خلق وبيان مصيره وإمكان إصلاح أخلاقه وتوجيه الإرادة الإنسانية الوجهة الأفضل عن طريق بذل الجهد والعمل الدائب لرياضة النفس وتحسين الخلق.

وبعد كل هذه المقدمات والأصول التفسيرية التى استقرأها من فهمه للآيات القرآنية والسنة النبوية، أصبح أمامنا الطريق ممهداً لشرح آرائه العملية فى تنفيذ ما رآه كفيلاً بتحقيق سعادة الإنسان والوصول به إلى حياة أفضل فى الدنيا وصولاً إلى الجنة فى الآخرة.

والمنهج الذى خطه الراغب يعد جديداً وأصيلاً فى الوقت نفسه؛ إذ يرشدنا أيضاً معشر مسلمى العصر الحاضر إلى الطريقة التى تحقق بها الصفات الإنسانية بفضائلها الخلقية كأحسن ما تكون فى ضوء الشرع الإسلامى، وسنبدأ بالتعريف به قبل عرض آرائه:

---

(١) ينظر مقالنا (الذريعة إلى مكارم الشريعة كما يوضحها الرا[illegible] ...انى) مجلة الدارة بالرياض (ص ٢٠٦ - ٢٢٧) -جمادى الثانى ١٣٩٧هـ - يونيو ٩٧٧

الراغب الأصفهانى (أبو القاسم الحسين بن محمد المفضل) (٤٠٢هـ)،

الراغب الأصفهانى من حكماء المسلمين الذين أكدوا علو مكانتهم العقلية وجهودهم البناءة فى عالم الفكر الإسلامى، ولكنهم لم يلقوا العناية الجديرة بهم بسبب الانحصار فى دائرة بعض فلاسفة المسلمين التقليديين الذى كثر الاهتمام بهم، وتشعبت حولهم الدراسات والأبحاث، أمثال: الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم، فأشبعتهم الدراسات بحثًا حتى راجت أفكارهم واشتهرت أسماؤهم على حساب عدد آخر من حكماء الإسلام، فكم من العلماء الحكماء الغائبين فى متاهات النسيان أو زوايا النكران؟!!

ولا نحب الانسياق وراء التعليلات والتفسيرات بسوء الحظ الذى لحقهم أمواتًا كما لحقهم أحياء، فقد آلينا على أنفسنا أن نساهم بجهدنا المحدود -والله المستعان- فى مسح غبار النسيان عن بعض بناة أمجاد الثقافة الإسلامية المؤصلين لمناهجها، بادئين بأحد حكمائها الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهانى، الذى جمع ثقافات عصره من لغة وأدب وتاريخ وتفسير وحديث وفقه وفلسفة وعلم كلام ومقارنة الأديان، وكتب فى هذه العلوم عن دراية واسعة وفهم عميق، فأخرج كتابه (محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء)، الذى جمع فأوعى من كافة صنوف المعرفة والعلوم التى أحاط بها علمًا، كما تفتق ذهنه عن منهج جديد فى تفسير القرآن الحكيم، فرأى أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علومه «العلوم اللفظية»، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة (فتحصل معانى مفردات ألفاظ القرآن فى كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللبن فى كونه من أول المعاون فى بناء ما يريد أن يبنيه)[1]. والقارئ لكتابه (المفردات فى غريب القرآن) يقتنع بصحة منهجه.

كما أوضح لنا رأيه فى الاتجاهات الأخلاقية السائدة حينذاك واستوعبها فى كتاب، ربما يعد من أفضل كتب الأخلاق التى أبدعتها قرائح علماء المسلمين، وسماه (الذريعة

(١) الأصفهانى: المفردات فى غريب القرآن ص٦، تحقيق وضبط محمد سيد كيلانى، ط. الحلبى ١٣٨١هـ- ١٩٦١م.

إلى مكارم الشريعة)، إلى جانب كتب أخرى مازالت راقدة على أرفف المخطوطات تنتظر من يحييها بعد طول رقاد.

ونقول باختصار: إننا نرى أنه أسهم بمؤلفاته في مقاومة تيار الغزو الثقافي الأجنبي، بل استطاع تطويع هذه الثقافة للتصورات الإسلامية، فكشف عن حكيم مسلم، مزج النظر العقلي التأملي في موضوعات الغيب -أو ما وراء الطبيعة- بنبضات الحياة الأخلاقية المثلى للإنسان أثناء سعيه في الأرض نحو غاية الغايات، وهي السعادة الأخروية الأبدية. وأعطى مدلولاً مبتكراً للحرية بشقيها الميتافيزيقي والأخلاقي لما أثبته من حرية الإنسان في اختيار أفعاله، إلى جانب مدلول الحرية المعبر عن سيطرة الإنسان على أهوائه وشهواته وارتقائه إلى مستوى (التلطف عن الأخذ)[١].

واسترشد الراغب بالآيات القرآنية للاستدلال على مفاهيم متعددة تتناول الغرض من وجود الإنسان على هذه الأرض، مستخلصاً فكرة (عمارة الأرض) التي عني بها كأحد الأهداف الإلهية من خلق الإنسان.

وفي نظرته إلى (العبادة) لم يقتصر على المعنى الأخلاقي لها كفعل مناف للشهوات -كما سنرى- ولكنه جعل الأعمال الإنسانية كلها ألواناً من العبادات، أي أنه بالاصطلاح الحديث، جعل من مظاهر هذه العبادة سيطرة الإنسان وتسخيره لما في السماء والأرض من موجودات لصالحه والارتقاء بحياته، ونجاحه في الاكتشافات العلمية المؤدية لاستخراج ما في باطن الأرض وظاهرها، وتعميرها، واستغلال كنوزها، واستخدام الآلات المخترعة في توفير احتياجاته وتحقيق سعادته في الدنيا والتمتع بخيراتها. وحث على بذل الجهود الإنسانية بكافة قواها -مباشرة أو بواسطة الآلات المحققة لهذه الأغراض- للوصول إلى تسخير المخلوقات وتحسين ظروف الحياة على ظهر الأرض، جاعلاً من كل هذه الأعمال لوناً من العبادات. فقد جعل من كل فعل يتحراه الإنسان عبادة سواء كان الفعل واجباً أو ندباً أو مباحاً متوسعاً في الأفعال المباحة، لأنه ما من مباح في رأيه إلا وإذا تعاطاه الإنسان على ما يقتضيه حكم الله تعالى

---

(١) الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٥٩، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.



كان (كالإنسان فى تعاطيه عابداً لله مستحقاً لثوابه)، مستنداً لخطاب النبى ﷺ لسعد: «إنك لتؤجر فى كل شيء حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك»، وعلى هذا الوجه قال ﷺ أيضاً: «ما من مسلم غرس غرساً لم يأكل منه شيئاً إلا كان له صدقة». ولكنه يشترط فى هذه الأعمال لكى تكون عبادة مراعاة أمر الله فى جميع الأمور دقيقها وجليلها، وأن يتحرى بها حكم الشريعة[(١)].

ودعاه ذلك إلى بحث مدلول «الإنسان الحضارى» بلغتنا، وهو عنده الإنسان المؤمن، الآخذ بالأسباب المؤدية إلى جعله مستحقاً لخلافة الله سبحانه وتعالى فى الأرض بالتخلق بأخلاقه -عز وجل- أى الأخذ بمكارم الشريعة، وهى الحكمة والقيام بالعدالة، جاعلاً دور الحكماء يلى دور الرسل والأنبياء عليهم السلام.

ونكتفى بهذه المقدمة للتعريف بالراغب وأشهر كتبه المطبوعة، لننتقل للحديث عن مواقفه الميتافيزيقية والأخلاقية، وبيان منهجه الذى جمع فيه بين العقل والنقل ومزجهما عن دقة فهم وإحاطة. وسنحاول التعبير عن هذا الامتزاج الذى يلمسه القارئ لمؤلفاته النابضة بالحياة والحركة، فنصحب معه الإنسان منذ ولادته إلى موته الأولى ثم بعثه، ونسير معه على الدرب الطويل: نرقبه فى مجاهداته وصراعاته مع هوى النفس وهواتف الشيطان، ونرتقى معه إلى الكمالات الإنسانية المتصفة بأخلاق الله سبحانه، وننظر وإياه إلى أعماق النفس البشرية فى أحوالها وتقلباتها. ثم نستمع إلى إجاباته الواضحة، المحددة عن الأسئلة الملحة التى تراود الإنسان فى كل عصر ومصر بعامة، والحكماء والفلاسفة بخاصة، ألا وهى:

- كيف خلقنا؟ ولم خلقنا؟

- إلى أين المصير؟

أولاً، كيف خلقنا؟،

تقتضى دراسة النظرية الأخلاقية عند الأصفهانى أن نستطلع آراءه فى أهم الموضوعات التى تطرق إليها، حيث تكلم عن الإنسان من حيث ماهيته مبيناً ما يفضل

(١) الأصفهانى: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص٤٨ من سلسلة الثقافة الإسلامية العدد ٢٨ ذو القعدة ١٣٨٠هـ - أبريل ١٩٦١م.

به على سائر الحيوان، وأنه على سفر إلى الدار الآخرة، مع بيان الغرض الذى من أجله خلق الإنسان. وعالج الصلة بين العقل وهوى النفس كما تطرق إلى أنواع الأفعال الإرادية وغير الإرادية، وأوضح مفهوم السعادة الحقيقية التى ينبغى أن يسعى لها الإنسان:

أولاً: الإنسان

١- ماهية الإنسان

الإنسان عنده مركب من جسم يدركه البصر، ونفس يدركها البصيرة، ويستند فى ذلك إلى تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢]، فالروح هى النفس ويرى أن إضافتها إلى الله تعالى تشريفها لها[١].

والإنسان أفضل من سائر الحيوان بالعقل والعلم والحكمة والتدبير والرأى، وإن كل ما أوجد فى هذا العالم فمن أجل الإنسان[٢]، وهو يعنى أن تخصيص الإنسان بالعقل يجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر، وقد ارتقى إلى درجة الكمال ببعثة الأنبياء[٣]، ويقول فى إحدى عباراته: (وجملة الأمر، إن الإنسان هو زبدة هذا العالم وما سواه مخلوق لأجله، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، والمقصد من الإنسان سوقه إلى كماله الذى رسخ له)[٤].

وللنفس الإنسانية قوتان، قوة الشهوة وقوة العقل، فبالأولى يحرص الإنسان على تناول اللذات البدنية البهيمية، وبالثانية يحرص على تناول العلوم. وقد عالج الراغب اختلاف الناس فى الخلق (الأخلاق)؛ حيث رأى بعضهم أنها من جنس الخلقة ولا يستطيع أحد تغييره ما جبل عليه إن خيراً وإن شراً، ويعارض هذا الرأى؛ لأن للإنسان قوة تجعله يستطيع أن يتخلق بالأخلاق الحسنة، فقد جعل الله له سبيلاً إلى إصلاح

---

(١) الأصفهانى: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص١١.

(٢) تفصيل النشأتين ص١٥.

(٣) القاسمى: محاسن التأويل جـ٢ ص٢٨٣.

(٤) نفسه، ١٠٩، ٥١٠.

أخلاقه ولهذا قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وإذا لم يكن الأمر كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والأمر والنهى ولما جاز عقلاً أن نسأل أحداً لم فعلت ولم أنكرت (وكيف يكون هذا فى الإنسان ممتنعًا وقد وجدنا فى بعض البهائم ممكنًا، فالوحشى قد ينتقل بالعادة إلى الإنسى والجامح إلى السلاسة)(١).

ومهما اختلف الناس فى غرائزهم، من حيث قبول البعض إلى إمكان التغيير السريع لأخلاقهم والبعض الآخر إلى البطء والبعض فى الوسط -إلا أنه لا ينفك من أثر قبول.

والبواعث على طلب الخيرات الدنيوية ثلاث، أدناها مرتبة الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره، وهى من مقتضى الشهوة؛ ولذا فهى من فعل العامة. والثانى رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه وهى من مقتضى الحياء وهى لكبار أبناء الدنيا، والثالث تحرى الخير وطلب الفضيلة وهى من مقتضى العقل وفعل الحكماء.

أما البواعث على طلب الخيرات الأخروية فهى ثلاث أيضًا: الأول: الرغبة فى ثواب الله تعالى والمخافة من عقابه وهى منزلة العامة، والثانى: رجاء حمده ومخافة ذمه وهى منزلة الصالحين، والثالث: طلب مرضاته عز وجل وهى منزلة النبيين والصديقين والشهداء، وهى أعزها وجوداً وأفضل ما يتقرب به العبد. قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف: ٢٨] فإن أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه عز وجل أن لا يريد من الدنيا والآخرة غيره(٢).

ثانيا، لم خلقنا؟

يقسم الراغب الأصفهانى الكائنات من حيث الأغراض التى تحققها، والأفعال التى تختص بها، كالبعير خصص ليبلغنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس،

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٢٩.
(٢) نفسه، ص٤٧.

والفرس لتصل به إلى غاياتنا فى سرعة ويسر، والمنشار لإصلاح المصنوعات الخشبية وغيرها، والباب لندخل به إلى المنزل.

وبالمثل فإن للإنسان ثلاثة أفعال تختص به وهى:

١- عمارة الأرض المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، لتحصيل المعاش لنفسه ولغيره.

٢- عبادته المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أى الامتثال لله سبحانه فى عبادته فى أوامره ونواهيه.

٣- خلافته المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩][1].

ولا يستحق الإنسان الخلافة إلا بتحرى مكارم الشريعة وهى الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس فى الحكم والإحسان والفضل، والغرض منها بلوغ جنة المأوى.

ولما كان شرف الأشياء بتمام الغرض من وجودها ودناءتها بفقدان ذلك المعنى، فإن الفرس إذا لم لايصلح للعدو اتخذ حمولة، والسيف إن لم يصلح للقطع اتخذ منشاراً، وبالمثل فمن لا يصلح من الإنسان لتحقيق ما لأجله أوجد فالبهيمة خير منه، ولذلك ذم الله تعالى الذين فقدوا هذه الفضيلة: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤][2].

وتحرى مكارم الشريعة يحتاج إلى أن يصلح الإنسان نفسه أولاً بتهذيب نفسه قبل غيره، حيث ذم الله تعالى من يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر وهو غير مهذب فى نفسه فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وتبدأ مكارم الشريعة بطهارة النفس بالتعلم للتوصل إلى الحكمة، ثم العفة للتوصل إلى الجود، والصبر ليدرك الشجاعة والحلم، والعدالة لتصحيح الأفعال.

---

(١) الراغب الأصفهانى: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص١٨.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص١٨.

وباستكمال هذه الدرجات فإنه أصبح المعنىٌ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] وصلح لخلافة الله عز وجل.

ويظهر لنا من التفرقة بين مكارم الشريعة والعبادات، أن العبادات فرائض معلومة ومحدودة وتاركها يصبح ظالمًا، بينما المكارم درجة أعلى من العبادات، ولذا فإن أداء العبادات من باب العدالة ولكن التحرى بمكارم الشريعة من قبيل النفل والأفضال[١].

وهكذا فإن الراغب الأصفهانى يضع مستويات أخلاقية لأعمال الإنسان، فالعدل فعل ما يجب والتفضل الزيادة على ما يجب.

كذلك لا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس، فكما أن للبدن نجاسة فكذلك للنفس نجاسة، الأولى: تدرك بالبصر، والثانية: تدرك بالبصيرة، وإياها قصد تعالى بقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨]، ولقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، كما أشار سبحانه إلى طهارة القلوب بقوله تعالى: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [الأعراف: ٥٨].

ومن الآيات أيضًا التى تتضمن معنى التطهر قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢][٢].

ما تطهر به النفس:

ولكن كيف يتم تطهير النفس فى رأى مفكرنا الأخلاقى حتى يصبح الإنسان مرشحًا لخلافة الله تعالى مستحقًا به ثوابه؟

يرى أن العلم والعبادات هما المطهران للنفس؛ إذ إن أثرهما فى النفس كأثر الماء الذى يطهر البدن[٣] وأدلته على ذلك الآيات القرآنية التى يفسرها بهذا المعنى، مثل قوله

---

(١) نفسه، ص٢٠.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٢٠.

(٣) نفسه، ٢١/٢٢.

تعالى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧].

فالآية الأولى تدل على أن حياة النفس في العلم والعبادة.

أما الآية الثانية فقد فسرها ابن عباس بأن الماء يعني به القرآن؛ لأن به طهارة النفس والأودية هي القلوب التي احتملته بحسب ما وسعته[١].

والذي يلزم تطهيره من النفس القوى الثلاث: قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم -والحكمة هي أشرف منزلة العلم[٢] لأنها العلم والعمل به. ولهذا وصف الله تعالى الذين ليس لهم علم صحيح ولا عمل على الطريق المستقيم بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]. فالعقل يقال بالإضافة إلى المعرفة، والاهتداء بالإضافة إلى العمل[٣].

وتهذيب قوة الشهوة بقمعها لكي تكتسب العفة والجود، ويتم إخضاع قوة الحمية باستيلاء العقل عليها حتى تنقاد له فيحصل الشجاعة والحلم (فيتولد من اجتماع ذلك العدل)[٤].

الطريق ممهد إذن للإنسان لتطهير نفسه ورياضتها، وتقويم أخلاقه والارتقاء بها إلى ما يمكنه بحيث يصل بها إلى أرقى المستويات؛ لأن الإنسان حر مختار، والأدلة على ذلك تلزمنا بإيضاح وتحليل العوامل المؤثرة في الإرادة بحيث يخيل للبعض أنه (مجبر) ولكن الحقيقة غير ذلك. وإليك البيان:

٢- الإنسان مختار:

يقسم الأصفهاني الأحياء إلى ثلاثة أنواع، نوع لدار الدنيا وهي الحيوانات، ونوع للدار الآخرة وهو الملأ الأعلى، والإنسان بين هذين النوعين يصلح للدارين؛ لأنه

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٢٢.

(٢) تفسير القاسمي جـ٣ ص٢٦٠.

(٣) تفسير القاسمي جـ٣ ص٣٧٤.

(٤) الذريعة، ص٢٢.

واسطة بين اثنين أحدهما وضيع وهو الحيوانات ورفيع وهو الملائكة، فهو كالحيوانات من حيث الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمنازعة وغيرها من صفات الحيوانات، وكالملائكة فى العقل والعلم وعبادة الرب والاتصاف بالأخلاق الشريفة كالصدق والوفاء وغيرها، وذلك لأن حكمة الله عز وجل اقتضت أن يرشح الإنسان لعبادته وخلافته وعمارة أرضه وهيّأه أيضًا لمجاورته فى جنته فلو خلق كالحيوانات لما صلح للمجاورة بالجنة، ولو خلق كالملائكة لما صلح لتعمير الأرض (فاقتضت الحكمة الإلهية أن تجمع له القوتان وفى اعتبار هذه الجملة تنبيه على أن الإنسان دنيوى أخروى وأنه لم يخلق عبثًا ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥])[١].

أما بالنظر إلى البشر فى مدى اختلافهم فإنه يرى أن التفاوت بينهم يظهر للأسباب الآتية:

أولا: اختلاف الخلقة، مستخرجا هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [الأعراف: ٥٨] والآية الأخرى ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٦]. ويستشهد بما روى عن واقعة أصل الخلق (أن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام أمر أن يؤخذ من كل أرض قبضة فجاء بنو آدم على قدر طينها الأحمر والأبيض والأسود والسهل والحزن والطيب والخبيث)[٢].

ثانيًا: اختلاف طبائع الوالدين وتأثير عوامل الوراثة، ولهذا قال الرسول ﷺ: «تخيروا لنطفكم»[٣].

ثالثًا: اختلاف الوالدين من حيث الصلاح والفساد إذ أن الطفل بحكم نشأته بينهما ومخالطته لهما قد يتأثر بما هما عليه من جميل السيرة والخلق وقبيحهما[٤].

رابعًا: أثر الغذاء من حيث الرضاع وطيب المطعم، وبسبب هذا التأثير تصف العرب صاحب الفضل بقولها (لله دره)[٥].

---

(١) الراغب الأصفهانى: تفصيل النشأتين ص١٩، ٢٠.

(٢) نفسه ص٣٠. (٣) نفسه ص٣٠.

(٤)، (٥) نفسه ص٣١.

خامسًا: من حيث التربية والتهذيب وتنشئتهم على التعود بالعادات الحسنة ونبذ القبيحة، وبيان تفصيل ذلك أخذ الطفل بالآداب الشرعية وأمره بالصلاة لسبع وضربه لعشر طبقًا لحديث الرسول ﷺ، مع إبعاده عن مجالسة الأردياء لأنه يتطبع بطبائعهم، وتعليمه أن يسلك السبيل القويم في أقواله وسلوكه، وأن يقتصد في المأكل والمشارب، ويخالف الشهوة (ويمنع من المفاخرة ومن الضرب والشتم والعبث والاستكثار من الذهب والفضة، ويعوّد صلة الرحم وحسن تأدية فروض الشرع)[1].

سادسًا: اختلاف الناس الذين يعيشون معهم ويختلطون بهم من حيث الآراء والمذاهب[2].

سابعًا: مدى الاختلاف في الاجتهاد في تزكية النفس بالعلم والعمل، فإذا ما اجتمع للإنسان هذا الركن فجاهد نفسه في تعرّف الحق وزكاها مع توفر الاستعدادات الجبلية من حيث طيب المنبت وصلاح الوالدين وحسن التربية عن طريق الأخذ بالقواعد السالف الإشارة إليها، بلغ المرتبة العليا في الخيرات من جميع الجهات، وحق فيه قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٧]. على عكس من يسميهم بالرذل التام الرذيلة أي بعكس الأمور التي ذكرها[3].

وهكذا نجد الأصفهاني يقر جانب عوامل الوراثة والبيئة وأصل الخلقة من حيث التكوين البيولوجي، ثم يحرص على التنويه بأنه مهما تفاوت الناس في هذه العوامل التي تعد في حكم الجبرية عند البعض خطأ إلا أنه ما من أحد (إلا وله قوة على اكتساب قدر ما من الفضيلة، ولولا ذلك لبطلت فائدة الوعظ والانذار والتأديب). ولهذا فإن على الإنسان أن يبذل قصارى جهده ليكتسب ما يقدر عليه من أنواع الفضائل والله تعالى يعذره بقوله سبحانه ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فالأمر المهم والضروري هو المحاولة وعقد النية على تغيير سلوكه وتحسينه، حتى إذا فعل غاية وسعه كان ذلك إيذانا بأن يزيل الله عنه باقي السيئات التي عجز عن التخلص منها. يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [التحريم: ٨][4].

---

(١) الأصفهاني: تفصيل النشأتين ص٣١.

(٢) نفسه ص٣٢.

(٣، ٤) نفسه ص٥٤.

إنه يثبت جانب جبرى فى الإنسان -يتمثل فى عوامل الوراثة والخلقة وظروف النشأة والبيئة، ولكنه يرى أنه مختار لأفعاله، ويدعوه إلى بذل الجهد واستخدام إرادته الحرة فى رياضة نفسه وتقويم أخلاقه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وهنا يكاد يتفرد الأصفهانى بنظرته إلى العبادة فى المجال الأخلاقى.

العبادة ودورها فى السلوك الأخلاقى:

تمهيدا لبيان دور العبادة فى تقويم الأخلاق، ينبغى التمهيد لذلك بشرح ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان، وبالمقارنة بين الإنسان والحيوان واشتراكهما فى بعض قوى النفس، يتضح أن المستوى الأدنى الذى يتفق فيه الإنسان مع الحيوان من حيث القوى والطبائع الحيوانية من حيث الشهوة البدنية والغذاء والتناسل وغيرها، ولكن الإنسان ينتقل إلى مستوى أعلى حيث يتميز بالعقل، بل إنه بسبب العقل صار إنسانًا. ولكن العقل لا يصلح وحده بغير الشرع، وهنا تظهر أهمية العبادة فى السلوك الإنسانى عند الراغب الأصفهانى (فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية، ومن رفضها فقد انسلخ عن الإنسانية فصار حيوانًا أو دون الحيوان)[1]، لأنه بالعبادة يحقق الغاية التى من أجلها خلق كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦، ٥٧] ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

فما هى العبادة وما هو دورها فى السلوك الأخلاقى؟

العبادة كما يعرّفها هى (فعل اختيارى مناف للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى طاعة للشريعة)[2].

أما دورها فهو المحافظة على الفطرة التى خلق بها الإنسان المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله عز وجل ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨]. فالصبغة هى

(١) بين النشأتين ص٤٥.
(٢) نفسه ص٤٨.

العقول التي تميز بها الإنسان عن البهائم، والاستفهام في الآية للإنكار والنفي فلا صبغة أحسن من صبغته تعالى، ويتساءل الراغب (فكيف تذهب عنا صبغته ونحن نؤكدها بالعبادة، وهي تزيل رين القلب فينطبع فيه صورة الهداية؟)(١).

وترتفع العبادة إلى أرقى مراتبها عندما يحب الإنسان أن يتحرى بها ابتغاء مرضاة الله، ويؤديها بانشراح صدر بدلا من مجاهدة النفس (ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إن استطعت أن تعمل لله في الرضا باليقين فاعمل وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير»)(٢).

ثالثاً: إلى أين المصير؟

يرى الراغب أن الإنسان في دنياه مسافر متخذا الدليل على ذلك قصة الخلق إذ قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، ويستشهد بعبارة علي بن أبي طالب رضي الله عنه (الناس على سفر والدنيا دار ممر لا دار مقر وبطن أمه مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله وأنفاسه خطاياه يسار به سير السفينة براكبها)(٣).

فالغاية للإنسان ينبغي أن تكون دار السلام، ويحتاج في حياته إلى التزود للسفر، وهو في كدح وكبد ما لم ينته إلى دار القرار كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

والناس في طلبها على ضربين:

ضرب انصرفوا عن طلب الآخرة وركنوا إلى الدنيا وقالوا (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) وطلبوا الراحة فيها من حيث لا راحة، أي أنهم في أعمالهم وسلوكهم يبتغون من الدنيا (ما ليس في طبيعتها ولا موجودا فيها ولها)(٤).

---

(١) تفسير القاسمي ج٢ ص٢٧٤.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٣٤.

(٣) الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٩.

(٤) الراغب: تفصيل النشأتين ص٣٩.

ونفهم من رأي الأصفهاني انحراف هذا الموقف من الناحية الأخلاقية لأن أصحابه يسعون في تصرفاتهم نحو غاية لن تتحقق، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور: ٣٩].

أما الضرب الثاني من الناس، فهم الذين عرفوا أنهم يعيشون في الدنيا بصفة مؤقتة كما قال سبحانه ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦]، ومن ثم فقد أصبح الدافع لهم في أعمالهم التزود لدار الخلود فاغترفوا من الزاد الروحاني كالمعارف والحكم والعبادات والأخلاق الحميدة، لأنهم على يقين من الحصول على ثمرته وهي الحياة الأبدية، فإن الاستكثار من هذا الزاد محمود (ولا يكاد يطلبه إلا من قد عرفه وعرف منفعته)[١].

ولم ينس هذا الفريق من الناس في الوقت نفسه نصيبه من الدنيا، فتزود بالزاد الجسماني كالمال والاثاث ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، وغايتهم أن يستعينوا به على الحياة الدنيوية الفانية، إذ من طبيعة هذا الزاد أن يسترد من الإنسان بعد مفارقته للدنيا، فلا ينبغي الركون إليه والاستغناء به عن الزاد الروحاني اللازم للآخرة ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦]. ويخشى على المستكثر منه أن يثبط صاحبه عن مقصده. يقول الراغب (والاستكثار منه ليس بمذموم ما لم يكن مثبطا لصاحبه عن مقصده، وكان متناولا على الوجه الذي يجب وكما يجب)[٢]. ويقصد بالشق الثاني من عبارته التقيد في المعاملات بمقتضى الشرع.

وقد تدفع نفس المرء على الجمع بين الأمرين، وهنا يجب الاهتمام بما يبقى وتفضيله عما يفنى، أي إيثار الآخرة على الدنيا، ولا يأخذ من الثانية إلا بما يبلغ به دار الخلود بشرط مراعاة حكم الشرع والمحافظة على قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥][٣].

---

(١) الراغب: تفصيل النشأتين ص٣٩.

(٢) نفسه ص٤٠. (٣) بين النشأتين ص٤٠.

ويحرص مفكرنا الأخلاقى على أن يستخدم الإنسان قواه التى فطر بها للوصول إلى أشرف مراتب السعادة وأعلاها وهى السعادة الأخروية الجديرة بأن تعد السعادة الحقيقية والتى لا سبيل إليها إلا بإكتساب الفضائل ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩][(١)].

وتكتسب الفضائل باستخدام القوى الثلاث التى خص بها الإنسان، والسعى فى استخدام القوى الشهوية فى حدود ما رسمه الشرع، واستعمال القوة الغضبية فى المجاهدة التى تحميه، وقوته الفكرية لتحصيل العلم الذى يهديه، وعليه ألا يركن إلى الخمول والكسل بل أن يعمل بقول القائل (إن أردت أن لا تتعب فاتعب لئلا تتعب) فإن الإنسان أسمى من الحيوان، وإذا كان للحيوان قوة التحرك سعيًا لطلب الرزق، فللإنسان قوى العقل الذى إن لم يستخدمه فقد أبطل كل نعمة أنعمها الله عليه ويصبح وجود العقل عبثا، لأن النفس تبلد بترك التفكر والنظر كما يتبلد البدن بتعود الرفاهية بالكسل (فحق الإنسان أن لا يذهب عامة أوقاته إلا فى إصلاح أمر دينه ودنياه وموصلاته إلى آخرته مراعيا لها)[(٢)].

إن الحكيم الأصفهانى يصور الإنسان فى حركة دائمة ساعيا نحو غايته، فهو على سفر، ومقصده الدار الآخرة حيث تتحقق له السعادة الدائمة. بل إنه يستخدم لفظ (التحريك) معبرا عن هذا التصور للإنسان فى حركته، نحو الآخرة ويستند إلى الحديث (سافروا تغنموا) فإنه فى رأيه يحث على التحريك الذى يثمر جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى ومجاورة الله تعالى وكلها أسمى الغايات.

ولكن الإنسان فى سعيه هذا يحتاج إلى خمسة أشياء: معرفة المعبود المشار إليه بقوله: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ومعرفة الطريق المشار إليه بقوله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨] وتحصيل الزاد المتبلغ به المشار إليه بقوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، والمجاهدة فى الوصول كما قال

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٣٨.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص١٥١.

تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]، وبهذه الأشياء يأمن الغرور الذي خوفه الله تعالى منه في قوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣][1].

السعادة الأبدية:

يطلق الراغب الأصفهاني السعادة الحقيقية على الخيرات الأخروية، وتسمية غيرها بهذا الاسم، فإما لكونه معاونًا على ذلك أو نافعًا فيه (وكل ما أعان على خير وسعادة فهو خير وسعادة)[2].

ولهذا فإن سعي الإنسان يجب أن يتجه لتحقيق هذه السعادة حيث البقاء بلا فناء والعلم بلا جهل والقدرة بلا عجز والغنى بلا فقر.

ولكن الوصول إليها أمر بعيد المنال ولا يتم إلا باكتساب الفضائل النفسية وهي أربعة أشياء (العقل وكماله العلم والعفة وكما لها الورع والشجاعة وكمالها المجاهدة والعدالة وكمالها الإنصاف)[3] ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩][4].

وللإنسان سعادات[5] أبيحت له في الدنيا وهي النعم المذكورة في قوله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، ولكن الفرق بين النعم الدنيوية والأخروية، هو أن الأولى تبيد بينما الثانية لا تبيد.

والنعم الدنيوية تكون نعمة وسعادة إذا تناولها الناس على الوجه الذي جعل الله لهم

---

(١) نفسه ص١٥٢.

(٢) الذريعة إلى مكارك الشريعة ص٣٥.

(٣) نفسه ص٣٥.

(٤) نفسه ص٣٨.

(٥) ونلحظ أن التصور الإسلامي للدنيا والآخرة هو القاسم المشترك بين علماء الأخلاق، فأنظر مثلا قول ابن حبان (وأن الحر حق الحر من أعتقته الأخلاق الجميلة، كما أن أسوأ العبيد من استعبدته الأخلاق الدنية ومن أفضل الزاد في المعاد اعتقاد المحامد الباقية، ومن لزم معالي الأخلاق أنتج له سلوكها فراخًا تطير بالسرور) ولاحظ أيضًا مدلولات- الحرية- المحامد الباقية- الأخلاق الجميلة.

كتاب (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) ص٢٥٢/ ٢٥٣ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ط. دار الكتب العلمية -بيروت ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

فأصبحت لهم نعمة وسعادة وهم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وهناك فريق آخر ركنوا إليها فأصبحت عليهم نقمة فتعذبوا بها عاجلا وآجلا وهم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥][1].

واللذات الأخروية لا تدرك بالعقل في هذه الدنيا لأنه يقصر عن معرفتها، ولهذا فقد قرّب الله سبحانه تلك اللذات في الأذهان فشبهها لهم بأنواع ما تدركه حواسهم فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. وقوله عز وجل في أول هذه الآية ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يدل على أن ذلك تصوير وعلى سبيل التشبيه[2].

ولئن كان الموت هو الذريعة إلى السعادة الكبرى، وأن الإنسان لن يطلع على سعادة الآخرة إلا بعد مفارقته الهيكل الإنساني، إلا أن بوسعه قبل مفارقته لهذا الهيكل أن يزيل الأمراض النفسانية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] لكي يطلع (من وراء ستر رقيق على بعض ما أعدّه)، وقد حدث هذا لحارثة الذي قال للنبي ﷺ عزفت نفسي عن الدنيا فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وأطلع على أهل الجنة يتزاورون، وعلى أهل النار يتعاوون) فقال له النبي ﷺ «عرفت فالزم»[3]. السعادة الأخروية إذن هي الجديرة بالسعي والعمل، ولا يجب على الإنسان أن ييئس إذا حرم من نعم الدنيا بالرغم من محاولاته ودعواته وابتهاله إلى الله، بل عليه أن يعلم (أن نعمته فيما يمنعه من دنياه كنعمته فيما خوّله وأعطاه)[4]. وربما يقصد بذلك أن اختيار الله تعالى للعبد أفضل من اختيار العبد لنفسه.

---

(١) تفصيل النشأتين ص٣٥-٣٦.

(٢) نفسه ص٣٧.

(٣) نفسه ص٣٨.

(٤) تفسير القاسمي ج٣ ص٤٣٤.



ولا يعد فقدان النعيم الدنيوى خسارة بل هو على سبيل الاختبار والابتلاء إذ قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ [محمد: ٣١] فإن هذه الآية مشتملة على محن الدنيا. كما بين تعالى ما للصابرين عنده بقوله: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] الذين إذا أصيبوا بهذه البلايا ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ ﴾، أى أننا ملكا لله وخلقا له، فلا يجب المبالاة بالجوع لأن رزق العبد على سيده (فإن متع وقتا فلا بد أن يعود إليه. وأموالنا وأنفسنا وتراثنا ملك له، فله أن يتصرف فيما ما يشاء ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ فى الدار الآخرة. فيحصل لنا عنده ما فوّته علينا [(١)].

والمصاب يهون عليه الخطب متى عرف أنه راجع إلى ربه، متذكراً نعمه التى لا تعد ولا تحصى وأنه ما لديه منها أضعاف ما استرد منه.

أما الخاسر المطلق فهو الذى خسر نعيم الأبد، وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر: ١٥][(٢)].

●●●

(١) نفسه ج٢ ص٣٢٦.
(٢) نفسه ص١٤٩.

المبحث الخامس

الاجتماع

وسنعالج فى هذا المبحث القضايا الآتية :

أولاً: التعريف بعلم الاجتماع

الخلفية العقائدية للعلوم الإنسانية بالغرب .

الخلفية العقائدية لعلم الاجتماع الإسلامى .

ثانياً: معالم المنهج فى علم الاجتماع الإسلامى .

الأصول العامة للمجتمع الإسلامى .

وحدة الفطرة فى الطبيعة والمجتمع

ثالثاً: بعض سنن الله تعالى فى المجتمعات :

١ - القرآن الحكيم والظواهر الاجتماعية .

٢ - إقامة الحدود الشرعية وأثرها فى المجتمع .

التعرف بعلم الاجتماع فى الغرب اولاً:

يعرّف دوركيم علم الاجتماع بأنه علم النظم الذى يبحث فى طريقة نشأتها وفى وظائفها ويطلق لفظ نظام على جميع المعتقدات وعلى جميع ضروب السلوك التى تفرضها الحياة الاجتماعية[1] .

أما موضوع علم الاجتماع فهو الظواهر الاجتماعية، ويمكن معرفة الظاهرة الاجتماعية بأنها تشمل القواعد القانونية والخلقية وجوامع الكلم والأمثال الشعبية وأصول العقيدة، التى تعبر فيها الطوائف الدينية والفلسفية عن آرائها وقواعد الذوق الأدبى التى تتبعها شتى المدارس الأدبية وغير ذلك من الأمور .

(١) أميل دوركيم: قواعد المنهج فى علم الاجتماع ترجمة د. محمود قاسم ص ٤٢ - ٤٤ .

ويختلف تأثير الظواهر الاجتماعية حسب الظروف والأمكنة والأزمنة، فهناك بعض التيارات الاجتماعية التى تسوقنا أمامها بشدة تختلف قوة وضعفًا حسب اختلاف الأزمان والأقطار فيدفعنا أحد هذه التيارات مثلاً نحو الزواج على حين يدفعنا تيار آخر نحو الانتحار، وعلى حين يدفعنا تيار ثالث نحو الإكثار أو الإقلال من النسل وغير ذلك من الأمور.

وأيا كانت هذه الظواهر، فإن دوركيم يرى أن للظاهرة الاجتماعية قوة قاهرة خارجية، وأنها تباشر هذا القهر على أفراد المجتمع أو يمكن أن تباشره عليهم[١].

والقهر الذى تمارسه الجماعات يمكن أن يتشكل بصور متباينة:

١- فقد يكون نوعًا من القوة المادية فى الحتمية الطبيعية وعلى هذا النحو تفرض قيمة سلعة أو قطعة من النقود.

٢- وقد يكون جزاءات منظمة (تقننها وتقضى بها محكمة تم تأليفها) أو جزاءات غير رسمية (كالتمجيد أو التحقير، وهما جزاءان ليس لهما قانون ثابت يصدران عن الرأى، العام).

٣- السخرية التى تلحق بمن يخالفون العادات دون قصد أو يستهينون بالقواعد الشائعة[٢].

ومما ينتقد به دوركيم فى جملة الظواهر الاجتماعية موضوعًا للبحث، أنه أعطاها دورًا أكبر من حجمها وضخم من تأثيرها واعتبرها منفصلة عن (تجسداتها الفردية) ورآها شيئًا قائمًا مستقلاً بذاته عن السلوك الفردى، وأنها إذ تظهر فى المجتمع فأنها تظهر بوحى من العقد الجمعى، وهذه الفكرة -كما يرى أحد الباحثين يسودها فعلاً، الغموض الميتافيزيقى ويجعلها أدنى إلى مفاهيم التفكير الفلسفى[٣].

ولتقدير الدور الذى أداه المؤرخ وعالم الاجتماع ابن خلدون، يحسن بنا معرفة موضوع علم الاجتماع عنده، فإنه لم يتخذ من الظاهرة موضوعًا لدراسته بل جعل من

(١) نفس المصدر ص ٦٠ - ٦٣.

(٢) د. مصطفى حسين: المدخل، المدرسة الإسلامية فى الاجتماع ص ٨٢.

(٣) نفس المصدر: ٨٠- ٨١.

واقعات العمران البشرى -حسب تعبيره- موضوع الدراسة الاجتماعية: أصولها وفروعها على السواء، فبين فى مقدمته أن موضوع كتابه (ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من أحوال العمران فى الملك والكسب والعلوم والصنائع) ولم يترك جانبًا من جوانب الحياة الاجتماعية إلا تكلم عنه واعتبرت اليوم فروعًا مستقلة بعلم الاجتماع[١].

ويعتبر منهج ابن خلدون فى دراسات المجتمعات فاتحة لمنهج إسلامى فى البحث، لأنه سار فى نفس المنحى الذى ينحوه الفكر الإسلامى وتطابق طبيعة المجتمع الإسلامى من حيث إنها تتسم بواقعية ولا تنزع عنها سمة الطابع الأخلاقى النقدى فى النظرة الإسلامية.

الخلفية العقائدية للعلوم الإنسانية بالغرب

وعلى أية حال، فإن المقارنة الآنفة بين كل من دوركيم وابن خلدون تعكس لنا الخلفية العقائدية وراء كل منهما، وتسمح لنا بالتحذير من سلوك نفس مناهج الغربيين لأن العلوم الإنسانية عندهم قد نشأت وتطورت فى مناخ، عقائدى وعقلى خاص بهم، حيث تبدأ من تصور معين للوجود كله وتشمل على مقاييس الحق والخير والجمال، المنبثقة عن هذا التصور.

وتتلخص الخلفية العقائدية المشتركة بين فروع المعرفة والثقافة الغربية كلها بالقول بأن الوجود كله منحصر فى الإنسان والطبيعة وهو جزء منها ونوع من أنواعها[٢].

والطبيعية -فى الفلسفة المادية الملحدة- وجدت هكذا بنفسها وكذلك سننها أو قوانينها فهى مقدرة بنفسها من غير مقدر لها والعقل وحده طريق معرفة الحقائق وليس ثمة طريق آخر وليست المثل الأخلاقية والقيم والمفاهيم الحقيقية إلا وقائع أو حوادث كالحوادث الطبيعية نشأت وتطورت فهى ليست ثابتة والإنسان نفسه إنما هو حيوان اجتماعى مفكر فحسب وليست النفس الإنسانية إلا مجموعة من الغرائز[٣].

---

(١) نفس المصدر: ٨٠-٨١.

(٢، ٣) الأستاذ محمد المبارك: نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع، مجلة البحث الإسلامى ص ٣٣، ٣٥، ٣٧، العدد العاشر رجب ١٣٩٧، يوليو ١٩٧٧.

هذا التصور هو الغالب عند العقلانيين والماديين ولا يشذ عن الإيمان بها إلا فئة قليلة جداً وهى بقية من المؤمنين بالتفكير الدينى المسيحى -وليس فى هذه الفلسفة أو الأساس الاعتقادى أو التصور الوجودى مكان للإله وصلته بالكون ونظامه أو بالإنسان والوحى والنبوات أو للجزاء والحياة الخالدة أو المثل العليا الأخلاقية، ولا سيما ما كان مصدره الدين وسائر الغيبيات[1].

وفى ضوء هذه الحقيقة يجمل الأستاذ محمد المبارك -رحمه الله- النقد الموجه إلى علم الاجتماع الغربى فى الجوانب الآتية:

أولاً: أن الاتجاهات المذهبية للمؤلفين والباحثين فيه ذات أثر واضح فى صياغة علم الاجتماع واتجاه النظريات ووضع الافتراضات والتعليلات وهذه المذهبية ليست منبثقة عن علم الاجتماع نفسه بل هى خارجة عنه، ونعنى بها المنطلقات العقائدية التى انطلق منها أصحابها مزودين بل مدفوعين بها قبل الشروع ببحثهم فى علم الاجتماع، ويمكن الانتفاع بهذه الملاحظة المهمة لمعرفة أن للاسلام نظرته وتصوره العام للوجود عبر عنها القرآن الكريم بوضوح وهى نظرة متميزة، دقيقة أشمل وأكثر استيعابا من النظرات الأخرى ولها من سلطان الحجة فى الدفاع عنها ما يجعلها متفوقة على جميع النظرات الأخرى (فلماذا تنطلق المذاهب الأخرى من منطلقاتها المذهبية ولا ينطلق الباحثون المسلمون من منطلق الإسلام، فى نظرته الدقيقة الصحيحة)[2]؟ وهنا يعبر عن المدخل الأول لمنهج البحث فى علم الاجتماع الإسلامى.

ثانياً: فى علم الاجتماع الحديث مذاهب اجتماعية مختلفة لكل منها نظرته إلى الحوادث الاجتماعية ومنهجه وتفسيره لها وذلك باختلاف عقائد الباحثين، فهناك التفسير البيولوجى (العضوى) والمذهب النفسى والمذهب السكانى (الديموجرافى) والاقتصادى والفكرى الاعتقادى وغيرها، ومن هنا يظهر أن المجال فسيح بين هذه التفسيرات المتباينة لتعدد النظرات والمذاهب فى حدود البحث العلمى، وللباحث المسلم الخوض فى هذه المجالات مع التسلح بأدلته وبراهينه.

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المصدر: ص ٣٧ - ٤٠.

ثالثًا: فى علم الاجتماع نوعان من الموضوعات والحقائق والنظريات الأول منهما الحوادث الاجتماعية التى هى تحت سمعنا وبصرنا مما يمكن مشاهدته وجمعه ودراسته ووصفه وتصنيفه واستخراج سننه المطردة، وهذا القسم يمكن أن يكون علمًا إلى حد كبير والموقف الإسلامى من هذا القسم هو الإسهام فى الأبحاث والإستفادة من أبحاث غيرنا مع التنبه للأغراض والأغلاط وأخطاء المنهج وما ينشأ عنها أحيانًا من نتائج خاطئة، النوع الثانى من مباحث علم الاجتماع ما يتناول البحث فى أصل اللغات ونشأة الأديان -لذلك فقد كثرت النظريات وتعددت واختلفت ولا سبيل لالزام الباحثين المسلمين بإحدى هذه النظريات فليست هى من الحقائق العلمية التى لا يختلف فيها بل إن مثل هذه البحوث العلمية يمكن اعتبارها من قبيل الوجه الغيبى لعلم الاجتماع الذى يكون اقتحامه عن طريق العقل وحده منفرداً دون الاستعانة بمنهج خاص ضربًا من الحدس والتخمين والظن وهو يقابل مثيله فى علم الطبيعة حينما يسأل الكيمائى والفيزيائى نفسه عن أصل المادة ونشوئها وخلقها وكيف خلقت ومن وضع لها القوانين التى تجرى بموجبها[1].

الخلفية العقائدة العلم الاجتماع الإسلامى:

وقد اتضح مما تبين آنفا أن القسم الخاص بالدراسات الإحصائية الواقعية -أو الحقلية- يمكن الإستفادة فيها من منجزات علماء الاجتماع فى الغرب، بينما يبقى الحذر كل الحذر من الأصل الغيبى أو الميتافيزيقى التى تصدر عنه التصورات والأحكام.

فما هى الأصول الغيبية عند المسلمين المستمدة من عقيدتهم وتشكل رؤيتهم للمجتمع؟

إن أول هذه الأصول هى عقيدة التوحيد، حيث لا يختلف اثنان فى أنها حجر الزاوية فى السلوك الفردى والاجتماعى معًا، وعلى الأخص العبادات بأنواعها كلها وعلى الأخص التى تسهم فى وحدة المجتمع سواء فى شكل صلاة الجماعة أو أداء الزكاة وحقوق الأموال بعامة كالصدقات وغيرها، يقول الشيخ محمد الصادق عرجون (والإسلام فى عقيدته وعباداته ونظمه الاجتماعية حقيقة واحدة، مرتبط بعضها ببعض

(١) نفس ص ٤١.

لا تقبل التجزئة والتفريق ، فعباداته كلها إذا لم تقم على أساس عقيدة التوحيد الخالص كانت سرابا لا حقيقة له ، ونظمه الاجتماعية في سياسته واقتصاده وأخلاقه إذ لم يكن أساسها العقيدة والعبادات معًا -وأجلها الصلاة- ركن اخلاص العبادة لله تعالى، وتتبعها في الفضل أختها الزكاة، وهي ركن التكافل الاجتماعي الذي يجمع كلمة المسلمين على المواساة والتعاون الصادق- كانت أشباحًا لا روح فيها، وكانت أعمالاً آلية لا تثمر في القلب أثره»[١].

أ- أما في العبادات فلا يختلف اثنان على مظاهر الوحدة السلوكية التي تشد وتربط وتؤاخي وتؤلف القلوب في الصلاة والزكاة والصيام والحج.

ب- أما في مجال الضبط الاجتماعي فيتفرد الإسلام أيضًا بسمته الخاصة إذا عرفنا تعدد أشكال سلطة هذا الضبط عند علماء الاجتماع.

ولكن حيث يكون الإسلام هو أساس القيم ومصدر التشريع فلا حاجة إلى تعدد مصادر الضبط الاجتماعي حيث يكفل المجتمع الإسلامي عندئذ وسيلتين تحميه من الجريمة: الأولى: وسيلة حماية إذا نزغ الشيطان في القلب وهمّ صاحبه بارتكاب اعتدائه بتكمين الأسباب التي تحول بين المرء ووساس الشيطان -أي تقوية الوازع النفسي في القلوب لدفعها إلى السلوك السوي ابتغاء مرضاة الله تعالى[٢].

والثانية: وسيلة الردع ولا بد منها لأن الإنسان ركب فيه نزعات الشر والحسد والطمع فتدفعه للاعتداء -ومن هنا نهج الإسلام نهجا خاصًا بالنظر إلى مصالح المجتمع الأساسية (أي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال) وجعل وسيلة الردع إزاءها حدًا جعله الله حقًا خالصًا له[٣].

---

(١) محمد الصادق عرجون: سنن الله في المجتمع ص ٥٨ - ٥٩ من خلال القرآن- ط. دار السعودية للنشر والتوزيع- جدة.

(٢) د. مصطفى حسنين: المدخل إلى المدرسة الإسلامية في علم الاجتماع ص ١١١ مطبعة الكيلاني بالقاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(٣) وهي: الرأي العام، والقانون، والاعتقاد، والإيحاء الاجتماعي، والتربية، والعرف، والدين، والمثل العليا، والشعائر، والفن، والشخصية، والتثقيف، والتوهم، والقيم الاجتماعية (نفسه ص ١٢٨/ ١٢٩).

إذن فإن المنهج الإسلامي يجب أن يعتمد على ركيزتين:

أحدهما: نظرية، وهي في جوهرها مستمدة من تفسير الآيات القرآنية، وذلك لاستقراء السنن الإلهية في قيام المجتمعات وتدهورها، ويجانبها أيضًا الأحاديث النبوية من مصادرها المعتمدة.

وفي هذا الصدد يرى الأستاذ الدكتور حسن الساعاتي إن القرآن والسنة ليسا مجموعة من العقائد الإيمانية البحتة، وإنما يحتويان في الأعم الأغلب على ما يرتبط بأحوال الاجتماع الإنساني وشئون العمران البشري من معاملات اجتماعية تتعلق بمختلف النظم الاجتماعية، وبخاصة نظام الأسرة وما يشتمل عليه من نظم فرعية كالخطبة والزواج والطلاق وتربية الأطفال وحضانتهم والميراث، والنظام الاقتصادي وما يحتوى عليه من نظم فرعية كالإنتاج والبيع والشراء والنظام الأخلاقي وما يدخل في نطاقه من نظم فرعية قضائية وجزائية، والنظام السياسي وما يشتمل عليه من نظم فرعية تتعلق بالحكم والتشريع، هذا فضلاً عن مخاطبة القرآن والسنة العقل مباشرة وتوجيه الناس إلى النظر والتفكر والتدبر، واستخدام الأساليب المنطقية استدلالا وبرهانًا[1].

وما دام الأمر كذلك، فإن مما يعاوننا في مهمتنا إذا أردنا البدء بالنظر والبحث في علم الاجتماع الإسلامي -أن نسترشد بمنهج دراسة القرآن الذي خطه الشيخ المودودي، ويتلخص هذا المنهج في الخطوات التالية:

أ- أن يخلي الباحث ذهنه ما أمكن من جميع ما استقر فيه من التصورات والنظريات ويطهره من سائر ما يكنه من الرغبات الموالية أو المناوئة، ثم يكب على دراسته بقلب مفتوح وأذن واعية وقصد نزيه لفهمه.

ب- يقبل على دراسته اقبالاً لا ملل فيه ولا كلل، وأن يدرسه كل مرة وجهة جديدة، ويسجل ما يعن له من نقاط مهمة خلال الدراسة.

---

(١) د. حسن الساعاتي: علم الاجتماع الخلدوني -قواعد المنهج ص ١٩١ ط. دار النهضة العربية- بيروت سنة ١٩٨١م.

جـ- إذا ما انتهى من النظر الاجمالى الشامل يبدأ بدراسة تفصيلية.

وإزاء دراسة المجتمعات، فيحاول أن يعرف مثلاً (المجتمع المطلوب) فى نظرة القرآن ويسجل صفاته وشروط تحققه فى جانب، وصفات وخصال (المجتمع المرفوض) فى جانب آخر. كما يحاول أن يعرف موجبات تقدم المجتمع الأول وبقائه وسعادته حسب مقياس القرآن، والأسباب التى يعتبرها مبعث الهلاك والدمار[١].

الثانية: عملية، أى البحث العملى: فإذا كان علم الاجتماع فى الغرب قد جعل غايته القصوى علاج مشكلات المجتمع بواسطة البحث العملى[٢]، فما يضير علم الاجتماع لدى المسلمين أيضاً أن يتخذ من البحث العملى منهجاً لنفس الغاية؟

ثانياً: معالم المنهج فى علم الاجتماع الإسلامى:

وهنا لنا وقفة نستقرئ فيها بعض المنهج فى علم الاجتماع الإسلامى:

أولاً: إن الأساس النظرى مستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والنصوص الموضحة آنفا عندما تصف مجتمعاً من المجتمعات وما آل إليه فإن ذلك يعد بمثابة سنة عامة بحيث كل من يسير على طريقتها تتحقق فيه آثار متابعتها فى عقائدها وأعمالها، ومن ثم تساعد الدارس على التنبؤ بما ينتظر هذه المجتمعات إذا ما تابعت أسلافها.

ويستفاد من ذلك أيضاً أن الآيات والأحاديث تحمل دلالة الإنذار والتحذير.

بعبارة أخرى نجد ارتباطاً بين موضوعات (علم الاجتماع) و(التفسير التاريخى) أو (فلسفة التاريخ).

وهذه المزية يتفرد بها المنهج الإسلامى، ولا ينبغى للباحث أن يشغل نفسه بما دار فى البحوث الاجتماعية بأوروبا، حيث فصل علماء الاجتماع بين علم وفلسفة التاريخ، أى بين البحث الموضوعى والرغبة فى التنبؤ)[٣].

---

(١) أبو الأعلى المودودى: المبادئ الأساسية لفهم القرآن ص ٢٦/ ٢٨ بتصرف ط. دار التراث العربى- بدون تاريخ.

(٢) د. السيد محمد بدوى: مبادئ علم الاجتماع ص ٢٤٦ط. دار المعرف بمصر سنة ١٩٧٦م.

(٣) د. السيد محمد بدوى: مبادئ علم الاجتماع ص ١٨٠ ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦.

وقد تكلمنا آنفا عن مكانة عقيدة التوحيد وهيمنتها على النظام الاجتماعى حيث يفسر فى ضوئها حركة الفرد والمجتمع والأمة.

وفى مجال التطبيقات العملية للمنهج الإسلامى فى علم الاجتماع، نجد ابن خلدون ملتزمًا بهذا المنهج بصفة جوهرية وقد اكتشف هذه النتيجة الأستاذ الدكتور حسن الساعاتى بكتابه (علم الاجتماع الخلدونى قواعد المنهج) بعد تناوله لمقدمته بالتحليل حيث استوقفه استعمال ابن خلدون الشواهد القرآنية ليدعم بها آراءه، وأنه قد توصل إلى علمه الاجتماعى الجديد متأثرًا، إلى حد ما، بتدبره الاجتماعى لآيات القرآن التى يمكن أن يقاس على ما تتضمنه من معانى يسهل تطبيقها على الأحوال الاجتماعية[١].

وقد كان تبحره فى علوم القرآن سببا فى جعله يستدل بما فيه من قوانين أو مبادئ عامة من النفس البشرية والاجتماع الإنسانى وأحوال العمران[٢].

وبإحصاء عدد ما أورده ابن خلدون بمقدمته من الفاصلة القرآنية (سنة الله)، تبين أنه استشهد بها فى أربعة عشر موضعاً بارزاً، وكان استخدامها فى مواضعها بغرض إثبات أن سنة التغير أو التبدل أو التحول الاجتماعى من حال إلى آخر، هى بمثابة قوانين اجتماعية فى العمران البشرى.

ويقول الدكتور الساعاتى: (وغنى من البيان أنه لم تكن لتفوت ابن خلدون، وهو الفقيه والأصولى، مثل هذه العبارات القرآنية ذات الدلالات الاجتماعية الواضحة)[٣].

ونود بعد ذلك الاستفادة من هذه الدراسة الأصيلة لعالم من علمائنا الكبار، لتعضيد ما نذهب إليه فى بيان الأثر العميق لكتاب الله تعالى فى منهج البحث فى مجال علم الاجتماع فى تاريخنا، ولهذا يجب الاسترشاد بنفس المنهج مع الاستفادة بما استحدثه علم الاجتماع الحديث فى طرق البحث ومناهجه للظواهر الاجتماعية من حيث طرق

(١) د. حسن الساعاتى: علم الاجتماع الخلدونى - قواعد المنهج ص ١٢١/ ١٢٢.

(٢) نفسه ص ٤٠ بالإضافة إلى اعتداده بمناهج علم الحديث وأصول علم الفقه.

(٣) نفسه، ص١٣٥ وقد تتبع الدكتور الساعاتى هذه المواضع بكتابه من ص١٢٢ إلى ص١٣٢.

الإحصاء والتبويب والتفسير وغيرها من القواعد المنهجية التى يجب مراعاتها قبل البدء فى دراسة وبحث أى مشكلة اجتماعية .

كذلك الأحاديث النبوية؛ إذ اتضح أن ابن خلدون استند إليها أيضاً فى مواضع كثيرة من المقدمة، وبخاصة ذلك الحديث الذى يتضمن فى رأى الدكتور الساعاتى مبدأ رئيسياً من مبادئ علم الاجتماع؛ لأنه الركيزة الأساسية للتنشئة الاجتماعية ذلك الحديث هو قول الرسول ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...»[1] .

وقبل قيام ابن خلدون بتنظيم علم الاجتماع ووضع أصوله واكتشاف سننه، كان علماء المسلمين من فقهاء وعلماء وقضاة وأهل حسبه يستوحون من الكتاب والسنة أصول النظم الاجتماعية التى شرعها الإسلام . صحيح أنهم لم يعرفوا التقسيم المعاصر لعلم الاجتماع إلى نظرى وعملى، ولكن اجتهاداتهم العلمية ومراقبتهم لتنفيذ الشرع فى جوانب الحياة المختلفة يشكل الجانب العملى لما نعرفه الآن فى علم الاجتماع .

وبعبارة أخرى، فإنه فى الجانب النظرى، استخلصوا الآيات والأحاديث التى تتناول الظواهر الاجتماعية كنظام الأسرة وفروعه من زواج وطلاق وميراث وتربية أطفال، والنظام المالى وما يحتويه من بيع وشراء وتعاقد ورهون، والنظام الأخلاقى والسياسى . . . إلخ .

ونرى فى الجانب العملى جهود القضاة وأهل الحسبة والفقهاء والعلماء الذين كانوا قائمين على تنفيذ حدود الله تعالى بالتحذير من الانحرافات وتصحيحها عن طريق الفتاوى والأحكام القضائية بتنفيذ الحدود والتعازير، والعمل بقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، استجابة لقول الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

وفى ضوء ذلك كله، فإن من واجب المجتمع الإسلامى ممثلا فى هؤلاء وغيرهم أن

---

(١) نفسه ص ك١٩٣ وباقى الحديث . . . كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها جدعاء؟ ، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] والحديث متفق عليه .

يتعاون أفراده فى رعاية حدود الله تعالى (فلا يسمحون لفرد منهم بأن يتعداها فى نفسه أو فى محيطه، حماية له ولأنفسهم جميعًا من عاقبة التعدى امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩])[١].

وقد شرعت الحدود لإصلاح أمراض القلب؛ إذ إن (العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلب، وهى من رحمة الله بعباده ورأفته بهم، الداخلة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ويضيف ابن تيمية إلى ذلك أن (الرحمة والرأفة يحبهما الله، ما لم تكن مضيعة لدين الله)[٢].

الأصول العامة للمجتمع الإسلامى:

عندما نعرّف للمجتمع المسلم، فإن أول الخطوات هى الوقوف على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحدثت عن التنظيم الاجتماعى للمسلمين فقد جاء الإسلام بقواعد وأصول للمجتمع الإسلامى فتضمنت الشريعة حدودًا للعقوبات والتعازير، واحتوت تعاليم الإسلام على تحديد النظام الاجتماعى الكفيل بضم المسلمين تحت كنفه؛ إذ يتعذر تحقيق الحياة التى أمر الشرع بها إلا فى مجتمع يتعاون فيه الجميع على تنفيذ الشريعة ويحتكمون فى تصرفاتهم إليها.

من هنا أورد القرآن الكريم آيات آمره بالأخلاق الفاضلة وسبل التعامل على المستوى الاجتماعى كحفظ المواثيق والعهود القضائية والحض على التعاون على البر والتقوى وصلة الرجال بالنساء وكفالة حماية الأسرة وعلاقة الحاكم بالمحكومين والعكس وتنظيم الأحكام المالية والصلات الاقتصادية وغير ذلك من روابط اجتماعية تحدد شكل المجتمع المسلم وتبرز معالمه وتميزه عن غيره من المجتمعات السائدة على ظهر الأرض.

وربما تضمنت بعض السور فى القرآن الكريم أغلب هذه النظم مثل سورة (النور) و(الحجرات) و(النساء)، وغيرها سنتناولها بشىء من التفصيل عند التعرض لبعض السنن الإلهية فى المجتمعات.

(١) محمد كامل حمزة: القيم الدينية والمجتمع ص٨٦، ط. دار المعارف (اقرأ) العدد ٣٨٦ يوليو ١٩٨٣م.

(٢) ابن تيمية: تفسير سورة النور ص١٠، ١١.

كذلك من الخطوات التى ينبغى أن نخطوها لمعرفة هذا المجتمع، التحقق من قيامه فى عصر النبى ﷺ والخلفاء الراشدين وامتداده لعدة قرون، صحيح أنه لم يحافظ فيما بعد على نفس السمات ولكنه أبقى على المظهر الإسلامى العام.

وفى ضوء ما تقدم يصبح من مهام علم الاجتماع الإسلامى أن يتتبع مظاهر الخلل فى النظام الاجتماعى للمسلمين وأسبابه ومظاهره، توطئة لإصلاحه وتقويمه[١].

وهو منهج علمى ينبغى -فى رأى الأستاذ الدكتور مصطفى حسنين- أن يلجأ إليه الباحثون الاجتماعيون لدرء مخاطر الغزو الحضارى الذى يكاد أن يعصف بكل نواحى الحياة عندنا، ويقول: (ويجب أن نقرر أن ما يتعرض له المجتمع الإسلامى هذه الأيام من ضغوط حضارية، فاق كل ما تعرض له نهج حضارة هذا المجتمع فى أى عصر من عصور حياته الماضية منذ ظهر الإسلام حتى اليوم)[٢].

والحق أن هذه القضية تحتل مركز الصدارة بين مشكلات المجتمعات الإسلامية المعاصرة؛ حيث وفدت إلينا من الغرب مذاهب متباينة فى الاقتصاد والاجتماع والتربية وكلها تدور حول نقطة واحدة هى العمل على طرح القيم الأخلاقية والمبادئ الروحية الإيمانية جانباً (إذا صح أن يكون من مذهب الحرية والوجودية والمنفعية أساس لحياة، فهى أساس لحياة أصحابها فقط، أما أنها تكون أساساً عملياً لحياة الأمم والجماعات... فهى حياة لا يمكن أن يقوم عليها مجتمع مثالى فاضل)[٣].

وهذه التحليلات تقودنا إلى التنبه للأثر المخرب لعوامل التغريب الطارئة مع

(١) يقول الدكتور مصطفى عبد الواحد: (فلا بد من الفرق بين المجتمع وبين الدولة فى تاريخ الإسلام.. فالمجتمع المسلم هو هذه الأمة التى التفت حول دينها فى أحرج الأوقات وحالك الظلمات، وهى التى أقامت هذا الدين وأصرت على تطبيقه، حتى عندما انحرف الحاكمون وأهملت الدولة تطبيق شريعة الإسلام.
ولا يزال ذلك المجتمع قائماً فى كل بيئة إسلامية صحت فيها العقيدة ونجت من الأدواء التى بثها أعداء هذا الدين فى كثير من الأنحاء (ص٥ من كتابه: المجتمع الإسلامى).

(٢) د. مصطفى محمد حسنين: المدخل إلى المدرسة الإسلامية فى علم الاجتماع ص٧٤، ٨٩ مطبعة الكيلانى بالقاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(٣) الشيخ محمود شلتوت: منهج القرآن فى بناء المجتمع ص١٧٩، ١٨٠، كتاب الهلال- العدد ٣٧٠ ذو الحج ١٤٠١هـ - أكتوبر ١٩٨١م.

الاحتكام لحضارة العصر الحديث، وهى ظاهرة فريدة فى تاريخنا من حيث تعدد مذاهبها والتمكين لها بواسطة القوى الاستعمارية لتربية الأجيال المسلمة وفق تصوراتها وفلسفتها، فى أطر مذاهب أيديولوجية متكاملة تستهدف خلخلة الأسس الإسلامية للمجتمعات الشرقية الإسلامية التى حافظت على سلامتها طوال القرون الماضية عندما كان للشرع وحده الكلمة النافذة.

كذلك يتحمّل علماء الاجتماع والباحثين وفق مناهجه الإسلامية مسئولية البحث عن الحل الصحيح.

والعلاج المقترح أن يلجأ الباحثون الاجتماعيون إلى الكشف عن أفضل السبل ووضع وسائل العلاج التى تحول تيار الغزو الفكرى إلى مسارات نافعة، وبأن تحول الصراع إلى أسلوب امتصاص يبقى على الأصل الإسلامى السليم فى مجتمعنا الإسلامى[1].

وفى مقدمة وسائل مقاومة ودفع الغزو الفكرى جعل التربية الإسلامية الاجتماعية السليمة أداة لغرس القيم الإسلامية فى النفوس فتصبح أداة الضبط والتلقى والاختيار السليم، فكما أن الجسم السليم يرفض كل سم ينفذ إليه، كذلك المجتمع، إن أقمناه سليماً صحيحاً فإنه سيلفظ كل رأى فاسد ينفذ إليه.

وبذلك يمكن حماية بنية المجتمع الإسلامى سليمًا من جانب، ونتفادى الاضطرار إلى الانغلاق؛ إذ إن (الانغلاق الاجتماعى فى عصرنا هذا مستحيل)[2].

ولا شك أن علم الاجتماع الإسلامى بمناهج بحثه النظرية والعملية كفيل بتحقيق هذا الدور، فضلاً عن تأثيره الفعال لأنه سيعيد إلى ذاكرتنا استحضار مميزات الحضارة الإسلامية.

لذلك فإن من واجب الباحثين (إبراز المعطيات التى قدمها الفكر الإسلامي للفكر الإنسانى، كما ينبغى بعث القيم الاجتماعية التى خلفتها الثقافة الإسلامية، ففى بعثها علاج لمعظم المشكلات الاجتماعية التى تعانيها اليوم)[3].

---

(١) د. مصطفى محمد حسنين: المدخل إلى المدرسة الإسلامية فى علم الاجتماع ص٨٩.

(٢) نفسه، ٨٩، ٩٠.

(٣) د. سامية مصطفى الخشاب: علم الاجتماع الإسلامى ص١٣٥، ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٠م.

وحدة الفطرة فى الطبيعة والمجتمع:

يرى الدكتور الغمراوى أن العلوم الاجتماعية لا تملك ما للعلم الطبيعى من التجربة العملية التى يتحكم العالم فى إجرائها بالصورة التى يرى أنها أدنى إلى أن تؤدى إلى الكشف عن الحق فى موضوعها، صحيح أن علماء الاجتماع يستعينون أيضًا بنوع من المشاهدة، ولولا ذلك ما كانت هناك علوم اجتماعية قط، لكن شتان بين المشاهدتين:

مشاهدة يكفيها ويضبط ظروفها المشاهد كما فى العلم الطبيعى وبين مشاهدة لا يكاد يكون هناك سبيل إلى التحكم فيها أو ضبط ظروفها وتكييفها كما فى العلم الاجتماعى.

وهذا الفرق الأساسى هو سبب نهوض العلوم الطبيعية وقعود العلوم الاجتماعية عن أن تبلغ من الدقة والإصابة المبلغ الذى يليق، هذه النتيجة ليست راجعة إلى فضل فريق من العلماء على فريق وإنما ترجع إلى طبيعة الموضوع فى كل علم.

ولكن عجز العلم الاجتماعى عن الوصول إلى الحق مهما تكن أسباب ذلك العجز لن يعفى أحداً من عواقب الخطأ أو التخبط فى الحياة الاجتماعية نتيجة لجهل سنن الله التى طبعت عليها الفطرة فى الاجتماع.

وفى هذه النقطة بالذات -أى الاستدلال بالفطرة- يتميز المسلمون عن سائر الناس، فمهما عذر الناس فى الجهل فإن الفطرة وحدة واحدة فى طبيعاتها واجتماعياتها فالمسلمون من بينهم لا عذر لهم لأن كتاب الله فاطر الفطرة قائم بينهم يخبرهم من ذلك بما جهلته الفلسفة ولم يدركه العلم، فى آيات هى فى أيدى المسلمين -كنحو قوله تعالى فى سورة تبارك ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ومن سورة فاطر: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ولم تنزل هذه الآية الكريمة وأمثالها فى القرآن فى سنة الله فى المادة وإنما نزلت فى سنة الله فى الاجتماع لتنذر الناس عواقب كفرهم إن كفروا بالدين الذى هو دين الفطرة، جرت فى الأولين بالهلاك حين عصوا واتبعوا أهواءهم، وهى جارية لا شك

فى الآخرين إن هم عصوا أيضًا وخرجوا عن سنته سبحانه التى فطر عليها الناس سواء أكان خروجهم ومخالفتهم عن جهل أو عن عناد[١].

هذا التفسير القرآني ينفرد به المسلمون وهو الأصل المنهجى كما بينا آنفًا، وعلى الباحثين فى أحوال مجتمعاتهم أن يعرفوا ارتباط السنن والأمثلة والتطبيقات بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من غير نسيان أيضًا سيرة السلف الصالح ما أمكن ذلك، إذ تعتبر سنة الماضين، حسب نهج القرآن دعمًا للبشر ومساعدًا لهم فى الابتعاد عن الوقوع فى الخطأ مرة أخرى وعلى المسلمين -بل البشر جميعًا- أن يفهموا هذه السنن حتى ينالوا، رحمة الله تعالى ويبتعدوا عن انتقامه لهذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] أى وإن يعودوا لأعمالهم الفاسدة الناشئة عن تصوراتهم واعتقاداتهم الخاطئة، فقد مضت سنة الله فى نزول العقاب على أمثال هؤلاء. ويدخل فى سنة الاعتبار أيضًا الأحداث التى حدثت بعد نزول القرآن، خلال هذه العصور فى كل أقطار الأرض سواء فى المجتمعات المؤمنة أم الكتابية أم الوثنية، وإدراك مثل هذه السنن وعلاقة ما بالأنفس بما يحدث للأقوام هو الذى جعل المؤرخ «ولز» يقول: (إن مصائب الحرب العالمية وما نزل بالناس من دمار وما حل من عذاب، كانت الجزاء الوفاق لما يحمله الناس من أفكار خاطئة[٢]).

ما أحوجنا إذن إلى دراسات منهجية لعلم اجتماع إسلامى لفهم سنن الله تعالى فى المجتمعات لاسيما فى هذا الوقت الذى أصبحت المجتمعات الإسلامية مهيأة لغزوات ثقافية متتابعة. يقول أحد الباحثين فى هذا الصدد: (وحين يصبح التلاعب بأفكار المجتمعات وتوجيهها إلى حيث يراد علمًا منسقًا له دوائر وعلماؤه ومؤسساته وحين

---

(١) د. العمراوى: الإسلام فى عصر العلم ص٦٥، إعداد د. أحمد عبد السلام الكردانى- ط. دار الإنسان ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

ولقد لخصنا فى هذا المبحث بعض ما أورده المؤلف -رحمه الله- فى الفصل الثامن من الكتاب تحت عنوان (الإسلام وسنن الاجتماع).

(٢) جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم ص١١١.

(بحث سنن تغيير النفس والمجتمع) تقديم مالك بن نبى ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م دمشق.

يؤلف كتاب في ذلك، لا بد أن يصير عند هذه المجتمعات علم آخر تتحصن به ضد هذه التوجهات وذلك الاغتصاب)[١].

ثالثا: بعض سنن الله تعالى في المجتمعات:

ومما يقرب لنا فهم سنن الله عز وجل في المجتمعات معرفة السنن التي تشد البنيان بعضه إلى بعض فهي التي تمكن من بناء يبقى على مر الزمن. إن مهندس البناء هو الذي يعرف مقدار التماسك لكل مادة وطاقة تحملها وكذلك يعرف ما يحتاج بناء الجسور والأنفاق والأبراج كذلك مهندس بناء المجتمع إذا نظر إلى المجتمع فإنه يعرف ما يتمتع به المجتمع من تماسك وما يطرأ عليه من خلل وما يتعرض له إذا استمر اهماله من خطر السقوط في أجل محدود.

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

والرسول ﷺ يضرب مثلاً آخر تمتزج فيه السنة المادية بالسنة الاجتماعية، في مثل السفينة وركابها وعلاقة سنن المركب بسنن المادة تارة وبسنن البشر تارة أخرى، هذا المثل يذكره الرسول ﷺ ليبين أن المجتمع قانونًا يترابط به ليحميه من الغرق.

فقد روى البخاري بسنده عن النعمان بن بشير قال رسول الله ﷺ: **«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا»**[٢].

وفي آية أخرى من آيات الله المتصلة بسنن المجتمع قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. والسنة الموجودة بها سنة عامة تنطبق على كل البشر وليست خاصة بالمسلمين بدليل أن كلمة (قوم) في الآية لم تأت

---

(١) جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم ص٢٥.

(٢) جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم ص٢٥.

مخصصة بقوم معين وإنما هى لكل قوم ولكن ليس معنى هذا أن مشكلة المسلمين لا تتميز بخصوصية من حيث العوارض والملابسات الخاصة التى ينبغى أن يراعيها المسلم حين يأخذ فى معالجة المشكلة[1].

مثال ذلك الخطاب الموجه إلى أهل المدينة بسورة النساء فى قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦] لتفيدهم أن الشرك بالله ليس هو اتخاذ الأوثان والأحجار فحسب ولكن هناك ألوانًا من الشرك غير هذا اللون، فكل من آثر على الله تعالى أحداً من الناس أو شيئًا من الأشياء فقد ارتكب لونًا من ألوان الشرك لأن الإيثار اختيار بعد الموازنة، فإيثار طاعة الحكام فيما يخالف أمر الله ونهيه لون، وإيثار الشهوات على الطاعات لون، وإيثار المادة والكسب المحرم لون، وإيثار حكم الإنسان على حكم الله فى التحليل والتحرم لون، وهكذا.

فإذا كان المجتمع الإسلامى خاليًا من شرك الأوثان فإن هناك ألوانًا من الشرك أخرى يجب أن يحذرها.

وبهذا يتميز المجتمع الإسلامى فى وضعه الصحيح عن غيره من المجتمعات، وقد أمر القرآن رسول الله ﷺ بأن يدعو أهل الكتاب إلى نبذ الأرباب حيث يقول: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤][2].

ومن الخصائص التى يتميز بها المجتمع الإسلامى أيضًا تنظيم العلاقة بين الرجال والنساء فى حدود الشرع من حيث الزواج والطلاق ونظام الأسرة وعلاقة النسب والمصاهرة وتحريم الزنا والأسباب المفضية إليه والأمر بحجاب المرأة ومنعها من الاختلاط بالرجال وغير ذلك من تشريعات نجدها فى سورة النور والنساء والحجرات وغيرها.

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

---

(١) الشيخ محمد محمد المدنى: المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء ص٤٨.

(٢) الشيخ محمد محمد المدنى: المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء ص٤٨.

وقال عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

والآيات فى هذه القضايا كثيرة.

ونجد فى السنة أيضًا أحاديث منظمة لشكل المجتمع المسلم. من ذلك مثلاً اختلاط الرجال بالنساء، فقد روى أبو داود بسنده عن أبى أسيد الأنصارى، أنه سمع النبى ﷺ يقول وهو خارج المسجد، فاختلط الرجال مع النساء فى الطريق فقال رسول الله ﷺ: «استأخرن فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بحافات الطريق» فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به.

وفى شرح هذا الحديث، علق الأستاذ المودودى رحمه الله بقوله (وأنه ليتضح من هذه الأحكام أن المجالس المختلطة من الرجال والنساء لا تتفق بحال مع طبيعة الإسلام ومزاجه، فالدين الذى لا يسمح باختلاط الجنسين للعبادة فى مواضعها، هل لأحد أن يتصور عنه أنه يبيح الاختلاط بينهما فى الكليات والمكاتب والمجالس والنوادى الساهرة؟)[1].

وبيان دور المرأة فى المجتمع الإسلامى ومكانتها من أهم المعالم التى تشكل هذا المجتمع وربما كان الحكم الصادر ممن نشأ فى المجتمع الغربى، ولاحظ الفروق الجوهرية بين المجتمعين ربما كان أقدر على فهم النظام الاجتماعى للإسلام ومعرفة حكمته: تقول السيدة الأمريكية مريم جميلة بعد اعتناقها للإسلام ودراستها لشريعته ونظمه وعباداته (فدور المرأة فى الإسلام ليس فى صندوق الانتخابات بل فى تعهد بيتها وأسرتها، ونجاحها كإنسان يقاس طبقًا لإخلاصها لزوجها، ورعاية أبنائها الغالية. فمن المنتظر لذلك أن تعيش المرأة المسلمة فى انعزال، والحجاب هو الوسيلة اللازمة لهذه الغاية فبينما يلعب الرجال على مسرح التاريخ فإن وظيفة النساء أن يكن مساعدات لهم، محتجبات عن أنظار العامة من وراء المشاهد، ولعل تلك المنزلة تكون أكثر تواضعا، وأقل إثارة، إلا أنها ليست أقل أهمية فى المحافظة على نهجنا فى الحياة)[2].

ونظن أن المعارضين لهذا الرأى من بيننا لن يجدوا ثغرة ينفذون إليها بحجة العصرية

---

(١) المودودى: تفسير سورة النور ص١٧٦ ط. دار الفكر ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.

(٢) مريم الجميلة: الإسلام فى النظرية والتطبيق ص٨٣ مكتبة الفلاح - الكويت ١٣٩٨هـ.

والتقدم والحضارة، فإن السيدة مريم قد نشأت في مجتمع بلغ الذروة فيها جميعًا قبل أن تهتدى إلى الإسلام وتعرف شريعته ونظمه، ومن ثم فإن حكمها المبنى على الدراسة المقارنة له حجته وبرهانه. يضاف إلى ذلك كله آيات وأحاديث كثيرة تشكل في مجموعها قواعد منهجية لعلم اجتماع جديد تبين أصول السنن الإلهية في قيام المجتمعات وانحدارها في إطار التصور الإسلامي -أجملها الأستاذ محمد المبارك في الأفكار الأساسية التي نورد بعضها فيما يلي[1]:

١- يشير القرآن إلى الحوادث والظواهر الاجتماعية كما يشير إلى الحوادث الطبيعية كتراكم السحب ونزول المطر وسقاية الأرض ونمو النبات واختزان الماء لتكوين الينابيع تحت الأرض ونقصانها وأمثال ذلك، يذكر القرآن أمثلة من الظواهر الاجتماعية كظاهرة التقليد والترف والظلم والاستبداد في الحكم والإجرام وعبادة الأوثان والكواكب وعبادة الأرواح من الملائكة والجن، وتطفيف الكيل والميزان واستغلال المستغلين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل وإلى ظهور الطبقية وامتيازاتها في المجتمع كطبقة رجال الدين **(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)** **(إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل)** ويشير الحديث النبوي كذلك إلى كثير من الظواهر الاجتماعية ويستعمل كلمة (فشا) أو، (ظهر) للدلالة على عموم الظاهرة وانتشارها كقوله ﷺ: **(ما فشا الزنا في قوم إلا كثر فيهم الموت)**، كإشارته إلى ظهور الطبقية في بني إسرائيل في قوله ﷺ **«إنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وإذا سرق فيهم الشريف تركوه»**، ويشير القرآن إلى حوادث اقتصادية كالربا وتطفيف الكيل والميزان وتسجيل الديون وإلى نظم الحكم حكم الشورى في مملكة بلقيس ﴿ **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ** ﴾ [النمل: ٣٢] وحكم فرعون الاستبدادي ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً**

---

(١) ويشاركه في الرأي الشيخ صادق عرجون إذ يعدد عوامل بناء المجتمع في المحافظة على الإخاء والمودة، بينما يجعل عوامل انحدار المجتمع في فساد القمة والانغماس في الترف، والركون إلى الظالمين. (ينظر كتابه: سنن الله في المجتمع من خلال القرآن) من ص٢٧ إلى ص٤٠ ط. الدار السعودية جدة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

مِنْهُمْ ﴾ [القصص: ٤] وإلى تعدد الأخلاقية ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وكذلك زين للذين كفروا ما كانوا يعملون وإلى الظاهرة اللغوية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]. . .

كما يشير القرآن الكريم إلى ارتباط الحوادث الاجتماعية مثل الارتباط المطرد الذى يسميه علماء الطبيعة وعلماء الاجتماع قانونا. فيتكرر فى القرآن مثلا حصول الهلاك بعد ظهور الظلم ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥٢]، ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩]، ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٧].

وكذلك ظاهرة الترف فقد تكررت فى القرآن واقترنت بالفسق ومحاربة دعوات الأنبياء الإصلاحية ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

إن قانون التغير الاجتماعى كأمر وجودى واقع نص عليه القرآن صراحة فى قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

كما عبرت عن التغيير الآية الأخرى التى ذكرناها آنفا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] وهى تشمل التغيير فى الاتجاهين: نحو الحسن والأفضل ونحو الأسوأ، ومعناها أن الإنسان قادر على تغيير المجتمع وأن الله تعالى أعطاه هذه القدرة ودله على الطريق وهو معرفة أسباب التغيير وعوامله[١].

---

(١) الأستاذ محمد المبارك: نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع: مجلة البحث ص ٤٠ - ٤١ رمضان ١٣٩٧هـ- أغسطس وسبتمبر ١٩٧٧م.

إقامة الحدود الشرعية وآثارها فى المجتمع:

مر بنا منهج الإسلام الخاص بالنظر إلى مصالح المجتمع الأساسية بحفظه للدين والنفس والعقل والنسل والمال، والتأمل فى هذه المقومات يجعلنا ندرك أنها وضعت وفق ترتيب خاص بالنظر إلى أهميتها ومكانتها للفرد بالمقاييس الإسلامية:

١- أولها الدين، إن الله تعالى وضعه فى كفة، وما عداه فى كفة أخرى ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال الرسول ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده والناس أجمعين» متفق عليه.

٢- والنفس بعد الدين هى أهم ما يحرص عليها الإنسان.

٣- وبالعقل تقوم إنسانية الإنسان وأهليته لما خلق له.

٤- وكمال الإنسان لا يكون إذا ثلم عرضه أو جرح.

٥- وأخيراً يأتى المال لأنه قوام الحياة فى بعدها المادى.

والحدود تقابل هذه المقدسات وتترتب بحسبها كما ينظمها الدكتور الذهبى رحمه الله كما يلى:

فإزاء حرمة الدين: حد الردة، وإزاء حرمة النفس: حد القتل أو القصاص، وإزاء حرمة العقل: حد الخمر، وإزاء حرمة العرض: حد الزنى وحد القذف، وإزاء حرمة المال: حد السرقة..[1].

ولا يخفى على أحد آثار تطبيق هذه الحدود على الأفراد والمجتمع، ذلك أن فلسفة الحدود فى النظام الإسلامى تقوم على مبدأين:

---

(١) د. محمد حسين الذهبى: أثر إقامة الحدود فى استقرار المجتمع ص ٤٠ - ٤١ ط دار الأعتصام ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

الأول: مبدأ نفسي، فإن الإنسان بحكم فطرته مسرح لصراع لا يفتأ بين دوافع الخير ونزعات الشر فيه ويتحقق في نفسه التوازن بأن تكون دوافع الخير غالبة بعامل الرغبة ودوافع الشر مغلوبة بعامل الرهبة.

مثال ذلك في حالة من يهم بالقتل أو بالزنا أو شرب الخمر فيتمائل له ما أعد الله للمتقين فينشط الوازع النفسي فيكف، وعامل الرهبة من العقاب يمنعه من مقاربة مثل هذه الآثام.

الثاني: مبدأ اجتماعي، وهو مستمد من فكرة جليلة مؤداها أن الحدود في جملتها هي حق الله تعالى. أو هي حق الله إلى جانب ما يكون فيها من حقوق الأفراد.

والحد بهذه الصفة ليس حقًا فرديا وإنما هو حق جماعي، ودلالته إن العدوان الذي وقع موجبًا لحد من الحدود هو عدوان على الجماعة كلها، كما يتضح في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ومعنى ذلك أن القاتل أو الزاني أو السارق لا يواجه بالمعتدي عليه وحده ولكن يواجه به وبالمجتمع كله معه، وهنا يتحقق المعنى النفسي.

أما المعنى الاجتماعي (فيتمثل في أن المجتمع لا يقف من هذه الجرائم موقف السلبية وعدم المبالاة، متعللاً بأنه ليس طرفًا فيها، وإنما هو طرف أصيل مسته الجريمة بطريقة مباشرة إذا كانت عدوانا على قيمة من قيمه وحرماته)[1].

انتهى الكتاب ولله الحمد والمنة

وصلِّ الله على نبينا محمدٍ وآله وصحبه

---

(١) نفسه ص ٦٣.

ويرى الشيخ محمد أبو زهرة -رحمه الله- أن انحصار المصالح في الأمور الخمسة الآنفة لأن كل مجتمع فاضل يجب أن يجعل غايته العليا المحافظة عليها، ولذلك حرص الشرع الإسلامي على أمرين:

١- جلب المنفعة لأكبر عدد ممكن في المجتمع.

٢- دفع الضرر.

ينظر كتابه: تنظيم للمجتمع ط. دار الفكر العربي ص ٥٩/ ٦٣، ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م.

أهم المراجع

- ابن الجوزي: ذم الهوى تحقيق مصطفى عبد الواحد مراجعة محمد الغزالي دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٣٨١هـ- ١٩٦٢م الطب الروحاني ط مكتبة القدس بالقاهرة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م لفتة الكبد إلى نصيحة الولد- تحقيق د. فؤاد عبد المنعم مكتبة حميدو بالإسكندرية سنة ١٩٧٩م.

- ابن غانم المقدسي: مصايد الشيطان وذم الهوى: تحقيق إبراهيم محمد الجمل -ط مكتبة القرآن بالقاهرة، ١٩٨٣م.

- الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة -ط مكتبة الكليات الأزهرية مراجعة وتقديم طه عبد الرؤوف سعد ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، سلسلة الثقافة الإسلامية ذو القعدة سنة ١٣٨٠هـ- إبريل سنة ١٩٦١م: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني- ط الحلبي ١٣٩١هـ- ١٩٦١م.

- أ.ل زانجويل: مدخل إلى علم النفس الحديث ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة محمد خيري حربي، سلسلة الألف كتاب (١٤١) سنة ١٩٥٧م.

- د. السيد بدوي: مبادئ علم الاجتماع -دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦م، تفسير سورة النور- ط دار الفكر ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م: المبادئ الأساسية لفهم القرآن- دار التراث العربي -بدون تاريخ.

- إميل دوركيم: قواعد المنهج في علم الاجتماع ترجمة د. محمود قاسم.

- ج. أ. هادفيلد: علم النفس والأخلاق ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم -مراجعة د. عبد العزيز القوصي مكتبة مصر بالقاهرة ١٩٥٣م

- جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم (بحيث في سنن تغيير النفس والمجتمع تقديم مالك بن بني ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م دمشق.

- د. حسن الساعاتي: علم الاجتماع الخلدوني -قواعد المنهج، دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٥٦م.

- د. بارودي: المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر ترجمة د. محمد غلاب مراجعة د. إبراهيم مذكور -ط الإنجلو ١٩٥٨.

- د. سامية مصطفى الخشاب: علم الاجتماع الإسلامي -دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٠م.

- د. سيد عبد الحميد مرسي: النفس البشرية، مكتبة وهبة ١٤٠٢ - ١٩٨٢م عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية- دار المعارف سنة ١٩٦٣.

- عبد الكريم عثمان: الدراسات النفسية عند المسلمين (والغزالي بوجه خاص) مكتبة وهبة ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

- على القاضي: أضواء على التربية في الإسلام دار الأنصار بالقاهرة، سنة ١٤٠٠هـ- ١٩٧٩م.

- غوستاف لوبون: حضارة العرب -ترجمة عادل زعيت، عيس البابي الحلبي وشركاه سنة ١٩٥٦م.

- محمد الصادق عرجون: سنن الله في المجتمع من خلال القرآن دار السعودية جدة.

- محمد المبارك: نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع مجلة البعث الإسلامي: العدد العاشر رجب ١٣٩٧هـ- يوليو ١٩٧٧م.

-د. محمد تقي الأميني: بين الإنسان الطبيعي والإنسان الصناعي -ترجمة د. متقدي حسن ياسين، مراجعة د. عبد الحليم عويس دار الاعتصام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- محمد شديد: قيم الحياة في القرآن -دار الشعب بالقاهرة ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣م.

- د. محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس -دار الشروق ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

- محمد قطب: دراسات في النفس الإنسانية -دار القلم بالقاهرة- بدون تاريخ.

- محمد كامل حتة: القيم الدينية والمجتمع -دار المعارف (اقرأ) العدد ٣٨٦ يوليو سنة ١٩٨٣م.

- محمد محمد المدني: المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء مجمع البحوث الإسلامية.

- مريم جميلة: الإسلام في النظرية والتطبيق -مكتبة الفلاح- الكويت ١٣٩٨هـ.

-د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا -ط المكتب الإسلامي دمشق- بيروت ١٣٩٧ هـ- ١٩٧٧.

- د. مصطفى حسنين: المدخل إلى المدرسة الإسلامية في الاجتماع -مطبعة الكيلاني بالقاهرة ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

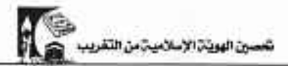
- د. مصطفى حلمي: مقال بعنوان (الذريعة إلى مكارم الشريعة كما يوضحها الراغب الأصفهاني) مجلة الدارة بالرياض- جمادى الثاني ١٣٩٧هـ- يونيو سنة ١٩٧٧م.

- مصطفى سويف: علم النفس الحديث -معالمه ونماذج من دراساته مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣م.

●●●

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
توطئة	٩
المبحث الأول	
العقيدة الإسلامية فى مجال الحوار بين الأديان	١٧
أولاً: التوثيق العلمى للمصادر:	١٨
ثانيًا: خلو الإسلام من الكهنوت:	١٩
ثالثًا: المنهج الاستدلالى للإسلام مستمد من مصادره:	٢٠
رابعًا: المسلمون دينهم واحد:	٢٢
خامسًا: ازدهار العقيدة الإسلامية فى ضوء الاكتشافات العلمية:	٢٣
سادسًا: حقيقة النبوة ودلائل صدق نبينا محمد ﷺ:	٢٥
المراجع	٢٩
المبحث الثانى	
تحصين الهوية الإسلامية من حملات التغريب وأزمات العصر	٣٣
أولاً: تحقيق الذات فى مشروع النهضة الإسلامية المعاصرة:	٣٣
ثانيًا: تحصين الهوية الإسلامية من حملات التغريب وأزمات العصر:	٣٤
ثالثًا: ضرورة ثبات المسلم المعاصر على عقائده ومبادئه:	٣٨
الثقافة والحضارة:	٤٠
رابعًا: التثقيف الذاتى للمسلم المعاصر:	٤١
خامسًا: ثقافة المرأة المسلمة المعاصرة:	٤٤



المراجع ٥٣

المبحث الثالث

في النفس ٦١
تمهيد: ٦١
التعريف بعلم النفس الإسلامي: ٦١
نبذة عن بعض قضايا علم النفس الإسلامي: ٦٣
ونبدأ بشرح الخلفية العقائدية لعلم النفس الإسلامي: ٦٩
الأصل في النفس: الفطرة والثبات: ٧٢
جوهر الخلاف في دراسة (النفس) بين المنهجين: الإسلامي والغربي: ٧٥
الخلفية العقائدية لعلم النفس الغربي: ٧٧
أولاً: القواعد المنهجية الأساسية في دراسة النفس عند ابن الجوزي (٥٩٧هـ): ٧٩
الحسد: ٨٤
الحقد: ٨٧
الأولى: العفو والصفح: ٨٨
الغضب: ٨٩
اجتناب الحزن الزائد: ٩١
دفع فضول الخوف والحذر من الموت: ٩٧
دفع الكسل: ٩٨
مرض العشق: ١٠٣
يقول الدكتور نجاتي: ١٠٧

المبحث الرابع

الأخلاق ١١٣
فكرة عامة مذاهب الأخلاق الغربية: ١١٣

أصول المنهج الأخلاقى لدى علماء المسلمين: ١١٦
الراغب الأصفهانى (أبو القاسم الحسين بن محمد المفضل) (٤٠٢هـ): ١٢١
أولاً: كيف خلقنا؟: ١٢٣
أولاً: الإنسان ١٢٤
١- ماهية الإنسان ١٢٤
ثانيًا: لم خلقنا؟ ١٢٥
ما تطهر به النفس: ١٢٧
٢- الإنسان مختار: ١٢٨
العبادة ودورها فى السلوك الأخلاقى: ١٣١
والناس فى طلبها على ضربين: ١٣٢
السعادة الأبدية: ١٣٥

المبحث الخامس

الاجتماع ١٣٩
التعريف بعلم الاجتماع فى الغرب اولاً: ١٣٩
الخلفية العقائدية للعلوم الإنسانية بالغرب ١٤١
الخلفية العقائدية العلم الاجتماع الإسلامى: ١٤٣
ثانيًا: معالم المنهج فى علم الاجتماع الإسلامى: ١٤٦
الأصول العامة للمجتمع الإسلامى: ١٤٩
وحدة الفطرة فى الطبيعة والمجتمع: ١٥٢
ثالثًا: بعض سنن الله تعالى فى المجتمعات: ١٥٤
إقامة الحدود الشرعية وآثارها فى المجتمع: ١٥٩
أهم المراجع ١٦١